مجلة اللغة العربية والعلوم الإسلامية المجلد (3) العدد(11)– سبتمبر 2024م
الترقيم الدولي للنسخة المطبوعة: x 145–2812 الترقيم الدولي للنسخة الإلكترونية: 2812– 5428
الموقع الإلكتروني: https://jlais.journals.ekb.eng

رواية القانون الفرنسى لصنع اللّه إبراهيم
دراسة على ضوء نظرية ما بعد الاستعمار

د. خالد محمد منصور جمعة
مدرس بكلية الآداب– قسم اللغة العربية– جامعة حلوان

Journal of Arabic Language and Islamic Science Vol (3) Issue (11)- spt2024
Printed ISSN:2812-541x On Line ISSN:2812-5428
Website: https://jlais.journals.ekb.eg/

رواية القانون الفرنسى لصنع الله إبراهيم
دراسة على ضوء نظرية ما بعد الاستعمار

د. خالد محمد منصور جمعة

مدرس بكلية الآداب- قسم اللغة العربية- جامعة حلوان

ملخص البحث

يتناول هذا البحث موضوع العلاقة بين الآداب والفنون وخاصة الرواية منها ونظرية ما بعد الاستعمار،وذلك بالتطبيق على رواية القانون الفرنسي،للروائى صنع الله إبراهيم.وتتمثل أهداف البحث فى التعريف بمصطلح ما بعد الاستعمار ونشأته،وتوضيح علاقة نظرية ما بعد الاستعمار بالرواية،وتحليل رواية القانون الفرنسي على ضوء تلك النظرية.ويعتمد البحث المنهج الوصفي في قراءة الرواية وتحليلها،مع توظيف آليات نظرية ما بعد الاستعمار؛للكشف عن تناقضات الخطاب الاستعمارى وازدواجيته وتوضيح أكاذيبه وادعاءاته المخالفة للمنطق والتاريخ والوقائع،وكذلك استخدام مفهوم القراءة الطباقية.ويدور البحث حول ثلاثة محاور،هى:التعريف بمصطلح ما بعد الاستعمار ونشأته،وعلاقة نظرية ما بعد الاستعمار بالرواية،وتحليل رواية القانون الفرنسي على ضوء تلك النظرية.

ومن نتائج البحث أن رواية القانون الفرنسى عملت كليًّا على كسر مركزية الصوت الواحد، فلا توجد حقيقة واحدة ولا صوت واحد وإنما مجموعة من الأصوات،وهذا كله بفضل القراءة الطباقية التي شملت كل الرواية وبنياتها المؤسسة.،كما أن مبدأ الثنائية مبدأ حاكم في السرد الروائي، وشمل هذا المبدأ كل بنيات رواية القانون الفرنسى،وثمة التحام شديد ووحدة موضوعية بين الجزء الخاص بالوثائق والجزء السردي فى هذه الرواية،واستخدامها مجموعة من آليات نظرية ما بعد الاستعمار،وحشد عدد هائل من الشخصيات الروائية المختلفة الانتماءات والثقافات،وأغلبها انتمى إلى مثقفى ما بعد الاستعمار،كما أن الحوارات بين

الشخصيات فى هذه الرواية عكست الطابع السجالي تجاه الموضوع الروائي،وثمة سيطرة للأماكن المؤقتة وأماكن الانتقال على فضاءات هذه الرواية،كما أن الزمان الروائي سار فى هذه الرواية في خط متصاعد،وجاءت منعرجاته قليلة؛من حيث المقاطع الاسترجاعية كمًّا وكيفًا،وجاءت الوقفات الوصفية قليلة أيضًا فى هذه الرواية.

الكلمات المفتاحية الدالة

رواية القانون الفرنسى- صنع الله إبراهيم- أدب ما بعد الاستعمار- نظرية ما بعد الاستعمار.

Research Summary

This research paper discusses the relation between literature and arts in general and the novel in particular and the post-colonialism theory. The study applies this to Sonaa-Allah Ibrahim's work The Frensh Law. The research objectives are: reviewing the definition and the appearance of post-colonialism, clarifying the connection between the theory and the novel, and analyzing the novel in the light of this theory.

The research paper depends on the descriptive approach in reading and analyzing the novel, beside employing the mechanisms of post-colonialism theory in revealing the discrepancies of the post colonial discourse. Also, clarifying the lies, unrealistic allegations, and illogicalities of the post-colonial discourse. This is done through using the concept of meticulous reading. The research paper revolves around three points: Defining and surveying the appearance of post-colonialism, discussing the connection between post-colonialism and fiction, and, analyzing the novel of The Frensh Law in the light of this theory.

This research paper concludes that the novel of the Frensh Law worked on destroying the centralization of the single voice; There's no unified fact or a single voice, yet a group of voices. All this is done by the meticulous reading. Also, the arbitrary principle is a roling one in the narrative technique. This principle included all the structural form of the novel of the Frensh Law. There's an amalgamation between both the documentary and the narrative sections in this novel. This amalgamation is done by using the mechanisms of the post-colonial theory, and the mobilizing of many literary personae thathave different backgrounds and multiculturally aren't alike. The majority of these personae belong to the post-colonial intellectuals.

Also, the dialogues between these literary personae in the novel reflected the egalitarian nature for the novel's theme. Besides, there's a dominance for both the temporal places and the transitional locations throughout the space of the novel. In

addition, the temporal element in this novel moved in an escalating line, with few turning pointsregarding the restoring points both qualitatively and quantitively. Furthermore, the descriptive stops were very few in this novel.
Keywords

The Frensh Law novel, Sonaa-Allah Ibrahim, Post-colonial Literature, Post-colonial Theory.

موضوع البحث وأهميته:

يعالج هذا البحث موضوعًا من الموضوعات التي أصبحت ملحة على الساحة النقدية،ألا وهو العلاقة بين الآداب والفنون وخاصة الرواية منها ونظرية ما بعد الاستعمار،وذلك بالتطبيق على رواية القانون الفرنسي،للروائى صنع الله إبراهيم.

وترجع أهمية هذا الموضوع إلى الاهتمام الملحوظ الذي تلقاه نظرية ما بعد الاستعمار في مجال الدراسات الثقافية عمومًا،وعلى الأخص منها النقد الأدبي والنظرية الأدبية،خاصة في ظل التحولات التي شهدها النقد الأدبي،ومنها تحول اهتمامه نحو دراسة العوامل الخارجية المؤثرة في عملية الإبداع الأدبي،بعد أن ظل يدور وقتًا ليس بالقصير داخل الإطار المغلق للنص وبنياته اللغوية.

وما يزيد الموضوع أهمية أن آداب العالم العربي الحديث يعد جلها من آداب ما بعد الاستعمار سواء أكان على المستوى الزمني أم على المستوى الموضوعي،كما أن مما يوضح أهمية هذا الموضوع الطبيعة الانتشارية لنظرية ما بعد الاستعمار في الآداب العالمية؛لأنها تتصل بظاهرة عالمية غيرت مجرى التاريخ البشري كله ولا تزال،وهي الظاهرة الاستعمارية التي طالت نحو ثمانين بالمائة من شعوب العالم،وعانت كل بلدان العالم العربي معاناة شديدة وطأة هذا الاستعمار وتغلغل آثاره في كل وجوه الحياة وفي حقول المعرفة الإنسانية.

وتشكل وعى أكثر شعوب العالم الحديث فى ظل التجربة الاستعمارية،وشعوب العالم العربي من أكثر من عانى سيطرة الاستعمار وتوابعها الكارثية،وتسربت هذه الخبرة إلى كل مؤسسات المجتمعات المستعمَرة سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا وأدبيًّا.

وقدم الأدب العربي بعضًا من طرق التعبير عن تلك المدركات التي حاول ولا يزال أن يزيل بها غبار الحقبة الاستعمارية عن نفسه ومجتمعه،وأن يقدم خطابًا ناقدًا للخطابات الاستعمارية،وإن أخذت تلك الطرق التعبيرية أشكالاً رمزية؛نظرًا لما يتميز به الأدب من طبيعة

كنائية،"فالنصوص الأدبية مهمة في تشكيل الخطابات الاستعمارية؛وذلك لأنها تعمل بصورة تخيلية"[1].

أهداف البحث:

تتمثل أهداف البحث فيما يأتى:

- التعريف بمصطلح ما بعد الاستعمار ونشأته.
- توضيح علاقة نظرية ما بعد الاستعمار بالرواية.
- تحليل رواية القانون الفرنسي،للروائى صنع الله إبراهيم على ضوء تلك النظرية النقدية.

منهج البحث:

يعتمد البحث المنهج الوصفي في قراءة الرواية وتحليلها،مع توظيف آليات نظرية ما بعد الاستعمار؛للكشف عن تناقضات الخطاب الاستعمارى وازدواجيته وتوضيح أكاذيبه وادعاءاته المخالفة للمنطق والتاريخ والوقائع، وكذلك استخدام مفهوم القراءة الطباقية ذلك المفهوم الذي يأخذ بعين الاعتبار خطاب قراءة الطرفين قراءة متوازية في الآن ذاته،ويلغي التراتبية التي اخترعها

1- آنيا لومبا،نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية،ترجمة: محمد عبد الغني غنوم،دار الحوار، سوريا،2007م،ص82.

المركز الغربي في رؤيته الأحادية الصارمة،وعلى ذلك فالقراءة الطباقية تهتم بالخطابين معًا خطاب المستعمِر وخطاب المستعمَر،وأيضًا تتبع آثار العملية الاستعمارية فى المستعمَر والمستعمِر،وتوضيح كيفية مساعدة البنية السردية للرواية موضع التحليل في تأكيد الدلالة الكلية لها.

ويدور البحث حول ثلاثة محاور،هى:التعريف بمصطلح ما بعد الاستعمار ونشأته، وعلاقة نظرية ما بعد الاستعمار بالرواية،وتحليل رواية القانون الفرنسي،للروائى صنع الله إبراهيم على ضوء تلك النظرية.

المحور الأول: التعريف بمصطلح ما بعد الاستعمار ونشأته:

قبل الحديث عن تعريف المصطلح،تحسن الإشارة إلى الروافد التي كانت سببًا من أسباب ظهور هذه النظرية النقدية،ومنها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي،يخص الداخلي منها مشروع الحداثة الغربية وبدايات نقده والحديث المبكر عن انهياره وتعثره،وذلك عبر النقد الذي وجهه بعض الفلاسفة الغربيين أفكار التمركز حول الذات،ونقد نظرية المركزية الغربية،ومنهم:كارل ماركس الذي انتقد الرأسمالية الغربية وحلل آثارها السلبية فى المجتمع الغربي،وكذلك نيتشه بكل ما وجهه من نقد لحركة التنوير؛بوصفه أهم أساس قام عليه مشروع الحداثة الغربية،ثم تبع ذلك مجموعة الفلاسة الذين ينتمون إلى فلسفة ما بعد الحداثة،وشاهدوا بأعينهم انهيار مشروع الحداثة الغربية بعد الحرب العالمية الثانية وإبان ثورة الطلاب،ومنهم:أنطونيو جرامشي،وميشيل فوكو،وجاك ديريدا،و" لقد رافقت نظرية ما بعد الاستعمار مرحلة ما بعد الحداثة؛ومن ثم فإن تحليل الخطاب ما بعد الاستعماري والنظرية ما بعد الكولونيالية واقعان تحت مظلة الفكر ما بعد الحداثي وما بعد البنيوي " [1].

1- سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي،الدر البيضاء، المغرب، 2005م،ص 159.

ونشأ خطاب ما بعد الاستعمار ضمن ذلك المناخ الفكري المتوتر الذي سادته الدعوة إلى أفكار جديدة ومشروع نهضة جديد،بعد التأكد من أفول نجم الحداثة الذي رسم نفسه أنموذجًا لكل حياة وكل تقدم ورفاه،؛فكان أن ظهرت مصطلحات الـــــ ما بعد،ومنها ما بعد الحداثة،وهو مشروع يريد أن يتجاوز كل ما قبله من مشروعات الفكر الغربي السابق الذي ظهر عجزه عن تقديم رؤية متكاملة للوجود؛مما أوصل الحضارة الغربية إلى أفق مسدود،وأظهر الخدعة الكبرى التي عاشت عليها أوروبا والعقل الغربي.

" ولقد كان وراء ظهور هذا التيار عاملان أساسان؛أولهما:الشعور بالإحباط وخيبة الأمل اللذين تولدا لدى المجتمعات الغربية نتيجة إخفاق الحداثة في أن تحقق السعادة والأمن للإنسان، بل على العكس من ذلك تسببت في إلحاق الدمار به عن طريق حربين عالميتين،وحروب أهلية كثيرة في أنحاء عديدة من العالم،خلفت كمًّا هائلًا من التدمير المادي والمعنوي للجنس البشري، وثانيهما:التحولات التكنولوجية وثورة المعلومات نتيجة التقدم العلمي والتقني المذهل"[1].

وهذا ما دعا أكثر مفكري الغرب لانتقاد مشروع الحداثة القائم على النظرة العنصرية، والمسيج بأساطير المركزية الغربية التي لا ترى إلا نفسها الحقيقة بالتميز والتقدير في هذا العالم، تقول ليندا لانغ:"إن جريمة المشروع الحداثي الكبرى في حق الشعوب الأصلية أو أسطورته اللاعقلانية خرافته الآثمة،وهي ببساطة إقصاء الآخر ورفض التعددية الثقافية،الأنا الغربية المركزية فقط"[2].

1- عطيات أبو السعود،نيتشه وما بعد الحداثة،مجلة فصول،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2004م،ص48.

2- ليندا لانغ،عن الحداثة،ضمن كتاب نقد مركزية المركز؛الفلسفة من أجل عالم متعدد الثقافات بعد استعماري ونسوي، ج2، ترجمة: يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة،المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب،ع396، الكويت،2013م،ص120.

ومن روافد هذه النظرية من خارج مركزها رافدان:أحدهما ينتمي لحركات أدبية نمت خارج نطاق الجغرافيا الأوروبية، ولكنها كانت كتابة مقاومة وردًّا على الخطاب الاستعماري،ومنها حركة ما سمى بآداب الكومنولث،وهى حاولت أن تكتب أدبًا خاصًّا بها يعبر عن روحها وقوميتها وهويتها التي سلبها الاستعمار إياها طويلًا،وأكد رواد هذه الحركة ونقادها أهمية الوظيفة السياسية والأخلاقية للأدب،وكذلك وجهوا وجهة نظر القارئ إلى قدرة الآداب والفنون على تغيير الواقع الإنساني كله،وأصبحت مهمة الكاتب في نظرية ما بعد الاستعمار هي الكشف عن خطايا النظام الغربي في حق غيره من الشعوب التي استعمرها بكل أشكال الرد والمقاومة، ورد الاعتبار إلى الثقافات التى أقصاها المركز الغربي المستعمِر[1].

والحركة الأدبية الأخرى هى حركة أدب الزنوجة،وبدأت في الظهور في الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادى؛حيث رفض أتباعها كل أطروحات الأدب الاستعماري وتضميناته الإيديولوجية تلك التي تعلي من جنس الرجل الأبيض وأدبه وتقصي ما عداه؛لذا كتبوا لإعلاء أمر ثقافتهم وإبراز هويتهم القومية،وبعد ثلاثة عقود عاودت هذه الحركة ظهورها في أمريكا،متمثلة في حركة الحقوق المدنية للأمريكيين السود من أصول إفريقية،وقامت على أيدى مجموعة من المثقفين الذين طالبوا بإرساء مبادئ عادلة بينهم وبين البيض،وأن يفسح لهم في التعبير عن هويتهم بوصفهم جزءًا لا يتجزأ من المجتمع الأمريكي.

ومن العوامل الخارجية أيضًا ظهور مجموعة من الكتب والمقالات لمجموعة من الكتاب والمثقفين الذين ينتمون إلى الهامش ولكنهم عاشوا في المركز الغربي ، ومنهم فرانز فانون، المثقف

1- انظر : هانز بيرتنز، النقد والنظرية ما بعد الكولونيالية، ترجمة: عمرو زكريا، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2014م،ص 131.

ـــوالطبيب النفسي المارتنيكي الذي كتب كتابين كانا من أصول انتقاد المركزية الغربية والاستعمار الغربي، وهما: بشرة سوداء وأقنعة بيضاء،ومعذبو الأرض، وكذلك كتابات المفكر التونسي ألبير ميمي عن المستعمِر والمستعمَر وجدلية العلاقة بينهما[1].

وجاء التأسيس الحقيقي لنظرية ما بعد الاستعمار بصدور كتاب الاستشراق،لإدوارد سعيد، وهو كتاب أحدث ثورة في الدراسات الإنسانية،فدراسات ما بعد الاستعمار قبل هذا الكتاب شيء وبعده شيء آخر؛إذ نقد فيه إدوارد سعيد الخطاب الاستعمارى في كل تجلياته، فهو يرى أن كل التراث الغربي الذي ذكر فيه الشرق جعل الغرب نفسه في موقع متميز فيه ونعت نفسه بكل نعوت التقدم والعلم والعقلانية،ووضع ما عداه في جانب آخر من العالم، ونعته بالتخلف والجهل والبربرية،وهكذا ابتدع الغرب هذه الثنائية لنفسه تجاه العالم كله،وبدأت فكرة التمركز حول الذات تتعاظم وتنتشر وتضرب في كل بنيات الفكر الأوروبي، مدعومة بمقالات وكتب وآداب وفنون لا تقوم على أي أساس من الصحة والموضوعية.

وأكد إدواد سعيد أنه لولا الشرق ما كان الغرب بترفه وثرائه،وأن هذا الشرق الذي يتحدث عنه الغرب هو شرقه هو،شرق مخيلته الأوروبية التي أبدعته وصورته على هذه الصورة البغيضة ليخدم مصالحه الاقتصادية والسياسية بالأساس، واستمر إدوارد سعيد في هذا الكتاب وكتابه الآخر: الثقافة والإمبريالية، في تفكيك الخطاب الاستعمارى، خاصة في الأعمال الروائية الغربية الأولى،وكشف الصورة المضمنة عن الشرق داخلها.

وعملت مؤسسات الاستعمار المختلفة على تدبيج خطاب حول الآخر الشرقي غير الأوروبي وتصديره للعالم، هذا الخطاب تم توليده وإبداعه عبر مجموعة من الأبنية الفنية والأدبية،

1- انظر : جي إم بلاوت، نموذج المستعمر للعالم، ترجمة: هبة الشايب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010م،ص 111 .

وهكذا تحول الآخر/الشرق إلى مجموعة من النصوص المتنوعة ضمن كتاب الغرب عن العالم، موضوعة هناك لمن يريد أن يعاينها،"ولقد أكدت الأبحاث التي أجريت مؤخرًا في المسرح والمعرفة العلمية والسينما والفن وعلم الخرائط وتخطيط المدن والمتاحف والمؤسسات التربوية والمؤسسات القانونية والطبية والسجون،على الصلات المعقدة والدقيقة والمتناقضة بين التمثيلات والمؤسسات السياسية الاستعمارية "[1].

ويعرف بيل أشكروفت ما بعد الاستعمار فى قوله: "يستخدم مصطلح ما بعد الكولونيالية ليشمل كل الثقافات التي تأثرت بالعملية الإمبريالية منذ اللحظة الكولونيالية إلى يومنا الحالي، ويرجع هذا الاستخدام إلى استمرار هذا الانشغال طوال العملية التاريخية التي بدأت بالعدوان الإمبريالي الأوروبي"[2] .

ويبدو أن تعريف أشكروفت يركز على شمولية المصطلح لجغرافيا واسعة جدًّا من العالم اتساع جغرافيا الاستعمار ذاته،كذلك الاتساع الزماني له منذ اللحظة الاستعمارية الأولى إلى الآن؛ لدراسة كل الآثار المتخلفة عن هذه العملية الاستعمارية،و" يتناول مفهوم ما بعد الكولونيالية آثار الاستعمار على الثقافات والمجتمعات،وقد ظهر بعد الحرب العالمية الثانية في سياقات مثل دولة ما بعد الكولونيالية،ويتضمن دراسة وتحليل الغزوات الأوروبية على الأرض والعمليات الخطابية للإمبراطورية "[3].

1- آنيا لومبا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ص 83.

2- بيل أشكروفت وآخرون،الرد بالكتابة؛النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة،ترجمة: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2006م،ص 16.

3- بيل أشكروفت وجاريث جريفيث، دراسات ما بعد الكولونيالية؛المفاهيم الرئيسية، ترجمة: أحمد الروبي وأيمن خلف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2012م، ص 122.

ويشير المصطلح كذلك إلى" تحليل ما بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات من نتاج يعبر عن توجهات استعمارية إزاء مناطق العالم الواقع خارج نطاق الغرب"[1]،وهذا هو ما ركزت عليه آنيا لومبا في تعريفها؛ فنظرية ما بعد الاستعمار عندها" قرينة إعادة النظر في كل المجالات المعرفية التي أنتجت في الحقبة الاستعمارية، وما قامت عليه الحداثة الأوروبية"[2].

ويطول التحليل لكل النصوص أدبية كانت أم غير أدبية وفقًا لهذا المفهوم؛فهو " يبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب بوصفه مستعمِرًا وما يقع خارج الغرب من دول وقعت تحت طائلة الاستعمار،مع ما تضمنته تلك الدراسات من تحليل للنصوص الأدبية وغيرها للكشف عن استراتيجيتها الخطابية"[3].

ومن خلال ما سبق يمكن القول:بدأ مصطلح ما بعد الاستعمار سياسيًّا؛حيث خرج من حقل الدراسات السياسية التي عنيت بـــتحليل آثار الاستعمار في المستعمرات السابقة والدول التي نالت استقلالها،وأخذ يتردد فيها تحت اسم الدولة ما بعد الاستعمارية،وفي سبيل تقديم تحليل واف لكل الخطاب الاستعماري المرتبط بهذه العملية ونصوصه أدبية كانت أم غير أدبية،لجأ المحللون بعد ذلك إلى الإفادة من مناهج البحث والتحليل في العلوم الإنسانية،وضمن هذا الإطار درست النصوص الأدبية بوصفها خطابًا استعماريًّا أيضًا،وهكذا انتقلت النظرية من الحقل السياسي إلى حقل الدراسات الثقافية؛ومن ثم إلى النقد الأدبي.

وظهر الحديث عن دراسات ما بعد الاستعمار في سياق عجز النظرية النقدية الأوروبية المنغلقة على ذاتها وأطرها الداخلية،عن تحليل التغيرات الكبرى والتحولات المتسارعة من حولها، تلك التي غيرت أشكال الكتابة؛نظرًا لحالة التشظي والتفتت التي عاشتها حياة الأفكار في أوروبا، بعد التأكد من انهيار مشروع الحداثة في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

1- سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص .158

2- انظر : آنيا لومبا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ص81.

3- حفناوي بعلي، المدخل إلى نظرية النقد الثقافي، منشورات الاختلاف، بيروت، 2007م،ص79.

وكان البحث عن مشروع بديل لمشروع الحداثة يداعب كل كتابة وكل إبداع في المجالات الأخرى؛الموسيقى والرسم والنحت والتصوير حتى الأغاني وكل أشكال الحياة،وهكذا وجد العقل الغربي نفسه في مأزق كبير؛فالروح تتعذب والجسد يتألم وليس هناك من شفاء،فلم يجد أمامه إلا أن يتخلى عن كبريائه وغروره الذي كان سبب الداء،وينظر حوله عله يجد أملًا في مشروع آخر مغاير لما وضع نفسه فيه.

كل هذا أدى إلى أن تتصف هذه النظرية بطابع المرونة والانفتاح والشمولية" والمؤكد أن هذا النوع من الإفادة من هذه المعارف التى تقع خارج دائرة النظرية النقدية التقليدية،هو ما جعل نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالى تحيد عن صرامة النظرية النقدية المعاصرة فى نزوعها نحو علمنة الظاهرة الأدبية"[1]؛ولهذا فنظرية ما بعد الاستعمار منفتحة فى رؤيتها للنص الأدبى؛حيث لا ترى النص مجرد بنية لغوية مغلقة على ذاتها ومنفصلة عن المحيط الثقافى والاجتماعى،بل على العكس من ذلك تربط بين جماليات النص الأدبى والمحيط الثقافى والتاريخى والاجتماعى والسياسي أيضًا.

واتسعت دائرة النقد الأدبى فى نظرية ما بعد الاستعمار،فأصبحت تهتم بتوسيع نطاق النصوص فى السياق الأدبى لتشمل عددًا أكثر من الإسهامات التى تمثل خبرة الشعوب المستعمَرة وتجاربها، وذلك"يعنى فى النقد الأدبى إعادة قراءة النصوص لكشف البنية المتخفية للسلطة الاستعمارية داخل الروايات؛ومن هنا اهتم النقاد بإعادة قراءة النصوص الأدبية من منظور ما بعد الاستعمار لفضح التوجهات الاستعمارية التى تحويها هذه النصوص"[2]؛حيث يتسع مجال الرؤية والتحليل للعمل الأدبى بهدف الكشف عن العلاقات بين تركيبه الفنى وأهدافه السياسية البعيدة المتخفية داخل البنية الفنية للعمل،وهذا لا يعنى بأى شكل الاقتصار على رؤية خارجية للعمل،بل للخارج دائمًا انعكاساته الداخلية فى صلب العمل.

1- يحيى بن الوليد،إدوارد سعيد وحال العرب، سلسلة مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2011م،ص 12.

2- طلعت أبو العزم، أدب ما بعد الاستعمار ونظريته النقدية، دار عين للدراسات والبحوث،القاهرة،2015م،ص 38.

المحور الثانى: علاقة نظرية ما بعد الاستعمار بالرواية:

قبل الحديث عن الرواية وصلتها بالاستعمار وما بعده،تحسن الإشارة إلى طبيعة الأدب الاستعمارى وصلته بالاستعمار وما يرتبط به من نظرية أدبية؛فالأدب الاستعمارى هو الأدب الذي استبطن في كتابته الأهداف الاستعمارية وصرح بها ودافع عنها وقدم لها الغطاء التخييلي في رؤيتها لكل ما هو خارج إطار الجغرافيا الأوروبية من شعوب وثقافات،وبرر النظرة الاستعمارية الأوروبية القائمة على العنصرية والدونية لكل ما هو غير غربي؛لأن المستعمِر الأوروبى"نظر إلى كل ما يتصل بالمستعمرات نظرة دونية وإقصائية أصلًا وأن هذه الآداب هي آداب الإمبراطورية،وهذا الإقصاء والاستبعاد وثيق الصلة بنظرتها إلى ذاتها"[1].

واللغة والإشارات والرموز والآداب هي المجالات التي تتشكل فيها الإيديولوجيات وتتصارع؛لذا فإن النصوص الأدبية تؤدى دورًا مهمًّا ووظيفة لازمة في بناء السلطة الثقافية للمستعمِرين في كل من العاصمة والمستعمرات التي تتبعها،وفطنت السلطات الاستعمارية إلى ذلك فعمدت إلى استغلالها في استعمار العقل والخيال؛حتى يسهل لها انقياد الشعوب المستعمَرة،وذلك يمهد لما أسماه بعض الباحثين بالقابلية للاستعمار.

ويتحرك أدب ما بعد الاستعمار على محورين رئيسين؛أولهما خطاب المستعمِر (الأنا) "المركز الغربي،في مقابلة خطاب المستعمَر (الآخر) الشرقي الذي ينقد خطاب الغربي المستعمِر ويفككه بكتابة سرد مضاد،أو بكتابة أدب يناقض في رؤاه وتصوراته أدب المستعمِر وخطابه، وهكذا نجد أنفسنا إزاء نمطين متقابلين من الكتابة،تمثل الثانية منهما الرد على الأولى في شكل جدالي،وهذا ما يمثل الخطاب ما بعد الكولونيالي "[2].

1- دون ماكلويد، نظرية ما بعد الاستعمار والرواية، ترجمة: أشرف إبراهيم زيدان، بيان للنشر والتوزيع،القاهرة،2020م،ص 10.

2- انظر : رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة؛خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،2013م،ص 56 ، 57.

وتعالج نظرية ما بعد الاستعمار مجموعة من القضايا والموضوعات التي تعد بدورها انعكاسًا لطبيعة العلاقة بين الأنا الغربي المتمركز حول ذاته والآخر الشرقي المهمش الموجود في الأطراف،مثل:قضايا الهوية،وثنائية الغرب والشرق،وعلاقة الأنا بالآخر،وغربة المنفى والإزاحة عن المكان،والتعددية الثقافية،والمقاومة الثقافية والمادية،وبيان الآثار الكارثية للاستعمار،والهجرة ومجتمعات الشتات،وغيرها من الموضوعات التي تمثل مجابهة بين الخطابين.

ويظهر تاريخ الرواية الغربية الارتباط بينها وبين الحقبة الاستعمارية،وهذا ما أكده إدوارد سعيد؛إذ بين أن الترابط الحتمي بين الرواية والاستعمار ظهر من خلال المعاينة الدقيقة للنزوع الاستعماري في البنيات السردية للرواية،بتبريرها من طرف بعيد للاستعمار،مرورًا برؤية الكاتب ووجهة نظره التي تتخلل وتستبطن كل البنيات السردية للرواية.

ويعود إدوارد سعيد ليؤكد طبيعة العلاقة الوجودية بين الرواية والاستعمار فى مراحل نشأتها وتطورها؛حيث قال:"إن الرواية من حيث هى منتج ثقافى من مصنعات المجتمع الطبقوسطى والإمبريالية غير قابلين للخطور بالبال منفصلتين إحداهما عن الأخرى،الرواية هي أكثر الأشكال الأدبية الرئيسية حداثة...،ولقد حصنت الرواية والإمبريالية إحداهما الأخرى إلى درجة عالية يستحيل معها قراءة إحداهما دون التعامل بطريقة ما مع الأخرى"[1].

ونشأ هذا التعاقد الخفى الذى أشار إليه إدوارد سعيد بين الرواية والاستعمار فى جو يشبه تبادل المصالح بين الاثنين؛فرجال الأدب أفادوا الإفادة القصوى ماديًّا ومعنويًّا من الاتصال بالإمبراطوية،وكذلك أفادت الإمبراطورية منهم فكانوا مثل أبواق دعاية لها؛" لقد كانت الإمبراطورية فضاء من الواقع النثرى وفضاء من الخيال،لقد تبرزنت صورة الإمبراطورية بشمس الخيال"[2].

1- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت،1998م،ص 139.

2- مارتن غرين،تاريخ الرواية الإنجليزية في القرن العشرين؛نكبة الإمبراطورية، ترجمة: محمد العبد الله، دار الفرقد،دمشق، سوريا،2014م، ص 43.

وهكذا كانت الرواية الغربية من حيث النشأة والتحول فى اتصال مع الاستعمار وحليفًا لها فى آن واحد؛فهى النوع الأقدر من بين كل الأنواع الأدبية تضمينًا لمقولات الاستعمار في نزعته العنصرية الاستغلالية بحيث أصبحت هى الجهاز الإيديولوجى المتخفي تحت مظلة الخيال، واستطاعت أن تنفذ إلى وعي رعاياها في المستعمرات؛إذ وجد الاستعمار" فى الرواية أفضل وسيلة لتبيان فلسفة التفاضل؛إذ أسست الرواية الأوروبية التى عاصرت نشأة الاستعمار بنوع من التمايز بين الذات الغربية(المستعمِر)، والآخر(المستعمَر)"[1].

وتحتضن الرواية كل هذه السجالات والصراعات بين المستعمِر والمستعمَر من حيث هي جنس خليط وهجنة يعتمد تعدد الأصوات والرؤى والمنظورات المتصارعة في داخله؛لذلك كانت هي النوع الأقدر على تصوير صراعات المستعمِر والمستعمَر وجدل العلاقات فيما بينهما؛لذا يمكن القول:"إن الرواية هى النوع المركزى فى أدب ما بعد الاستعمار،لا يكاد يزاحمها فى هذه المكانة نوع أدبى آخر،وهذا أمر بديهى؛لأنها نوع ينهض بطبيعته على تمثيل الواقع؛ولذلك فهو الأقدر على تمثيل مجتمعات ما بعد الاستعمار وعرض تناقضاتها وأصواتها المتضاربة... على خلفية من خبرة ذاتية لا تخلو من درس واستقصاء للواقع بكل أبعاده المركبة"[2].

فالرواية بوصفها شكلًا فنيًّا مراوغًا أشبه ما تكون بالاستعمار الذي يتلون بأشكال كثيرة؛ فهى من حيث بناؤها الفنى ملائمة له تمامًا؛فهي تراوح بين وجهات النظر المختلفة لتعكس صراعات الشخصيات واختلاف رؤاها ودمجها فى نسيج فنى واحد،يمثل صراع الهويات وصراع المصالح بين كل من المستعمِر والمستعمَر،بين المركز والهامش.

1- فتحية أبشو، المؤثر الاستعماري في الرواية الجزائرية،رسالة ماجستير غير منشورة،كلية الآداب واللغات،جامعة بجاية، الجزائر،2015م،ص 2.

2- خيري دومة،عدوى الرحيل؛موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية ما بعد الاستعمار،دار أزمنة للنشر والتوزيع،الدوحة،2010م،ص 44.

وإذا كانت الرواية الغربية قد مثلت سلاح الإمبراطورية في السيطرة والهيمنة على المستعمرات ونهب ثرواتها،فالرواية العربية مثلت بدورها الكتابة المضادة أو السرد المناهض للاستعمار، وانطوت على خطابات ما بعد الاستعمار من هذه الوجهة" حتى إننا لا يمكننا الحديث

عن الرواية العربية دون التطرق لتاريخ النضال السياسى والتاريخى فى المنطقة التى عانت ليس فقط من الاستعمار ولكن الحروب والمؤامرات من كل جانب"[1].

وعلى ذلك فالرواية العربية الحديثة سلاح المستعمَر ودرعه وصوته الذي لم يكن مسموعًا من قبل،وشكلت مع غيرها من الأنواع الأدبية العربية الأدب المقاوم والسرد المضاد لكل خطاب استعمارى،خاصة أن تاريخ المنطقة العربية الحديث هو حاشية على الحركة الاستعمارية"لقد اقتضت حتمية التاريخ أن تكون الكتابة العربية فى العصر الحديث هى كتابة مقاومة،وأن يكون أدبنا أدب ما بعد استعمار...،والأدب العربى كله منذ مرحلة الاستعمار إلى الآن ينتمى إلى ما يعرف بآداب ما بعد الكولونيالية"[2].

وأكد ذلك إدوارد سعيد؛حيث رأى أن الاستعمار والتمركز الغربي حول الذات منغرز فى الوعى العربى،ولا يزال إلى الآن؛فالعالم العربى لا يزال محط صراعات وتنازعات كثيرة،وهو الأمر الذى كان له أكبر الأثر في الإبداع الروائي العربي،وترك بصماته على الرواية العربية فى طموحها إلى الانفكاك من تلك التمفصلات القديمة/الحديثة المبنية على وعى غربى[3].

وتبقى العلاقة بين الرواية العربية والمصرية منها خاصة والاستعمار ثابتة وتاريخية؛فقد كانت البدايات الأولى للرواية العربية الحديثة متزامنة بشكل أو بآخر مع الحركة الاستعمارية على الشرق العربى بداية من الحملة الفرنسية ومرورًا بالاحتلال الإنجليزي حتى زواله وإلى الآن؛فقد ارتبط ظهور الرواية المصرية الحديثة ببداية تشكل وعى قومى جديد يؤسس للتمايز فى الهوية عن الآخر المستعمِر.

1- إدريس الخضراوي، الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، دار رؤية للنشر،القاهرة،2012م،ص 21.

2- شهلا العجيلي، أدب الشعوب التي تحررت من الاستعمار، مؤتمر النقد الثقافي ودراسات ما بعد الاستعمار، الدار الأهلية، الأردن،2007م،ص 35 .

3- انظر : إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى، ترجمة: ثائر ديب، دار الآداب ، بيروت،2004م،ص77.

وكان البحث عن الهوية المصرية والقومية المصرية سؤالًا ملحًّا على عموم المصريين بداية من القرن العشرين الميلادى،وكانت الرواية المصرية الحديثة إحدى أهم السرود التي عبرت عن هذه القضية بداية من الاحتلال الإنجليزي،وكان سؤال الهوية يترافق مع البحث عن الموقف من الآخر الغربي،وظهرت كتابات تتحدث عن المسألة المصرية تبحث عن جذور الهوية المصرية،:من نحن؟ وما موقفنا من الآخر؟"ولقد كان هذا التحول بالغ الأهمية بالنسبة لولادة جماعة الأمة المتخيلة، فيمكن أن أراه على أفضل وجه في البنية الأساس لاثنين من أشكال التخيل؛الرواية والصحيفة؛حيث وفر هذان الشكلان التقنيات اللازمة لإعادة تقديم ذلك النوع من الجماعة المتخيلة الذي هو الأمة "[1].

وكان لهذا الآخر حضور ظاهر فى الرواية المصرية الحديثة فى مرحلة النشأة،وكذلك مع نجيب محفوظ،خاصة رواياته ذات المنحى الاجتماعى؛حيث شخصيات المستعمِر فى صورة سلبية فى أغلب رواياته،مثل:الثلاثية،وخان الخليلى،وزقاق المدق،وغيرها من الروايات الاجتماعية،وبعد نجيب محفوظ جاء روائيو جيل الستينيات فأبدعوا روايات تفكك خطاب المستعمِر وإيديولوجيته، ومن أهم هؤلاء الكتاب: بهاء طاهر، وصنع الله إبراهيم، وجميل عطية إبراهيم، وجمال الغيطاني، وخيري شلبي، ومحمد جبريل.

المحور الثالث: تحليل رواية القانون الفرنسى على ضوء نظرية ما بعد الاستعمار:

يأتي صنع الله إبراهيم في طليعة أهم الروائيين السياسيين فى الوطن العربى كافة؛إذ تتميز رواياته بمناقشة قضايا سياسية وقومية؛حيث يُلاحَظ اهتمامه بتتبع هذه القضايا الخاصة بوطنه فى علاقته مع العالم الخارجى، وهذا ليس خافيًا على أى قارئ لروايات صنع الله إبراهيم منذ بداياته الأولى، وأدى به هذا الاهتمام السياسى إلى سجنه مرات كثيرة، وأثرت هذه التجربة في إنتاجه الروائى، وكذلك كان عمله بالصحافة يطلعه على كثير من أسرار السياسة، ولهذا أثره الواضح في رواياته، وأسهم كل ذلك فى التشكيل الفنى لرواياته باعتمادها على النزعة التوثيقية.

1- بندكت أندرسن، الجماعات المتخيلة؛تأملات في أصل القومية وانتشارها، ترجمة: ثائر ديب، قدمس للنشر والتوزيع، بيروت، 2009م،ص 67.

ويعد نقد الخطاب الاستعمارى موضوعًا روائيًّا أثيرًا عند صنع الله إبراهيم، بداية من رواية اللجنة، ومرورًا برواية ذات،ثم أمريكاناللى، والقبعة والعمامة،واستوى هذ الموضوع نظريًّا وفنيًّا في رواية القانون الفرنسى،وهى عملت على تفكيك الخطاب الاستعمارى ونقض مقولاته، وكشف زيفه، وتعرية تاريخه الدموى وسلوكياته اللاأخلاقية على الدوام، وكذلك بينت الآثار الكارثية للظاهرة الاستعمارية فى بلدان الوطن العربى وآثارها الإيجابية بالنسبة للإمبراطوريات السابقة، مستخدمة آليات التحليل ما بعد الاستعمارى ومصطلحاته الخاصة.

وثمة صلات واضحة بين رواية القانون الفرنسى وما بعد الاستعمار؛فمن حيث البعد الزمنى لصدور هذه الرواية فى أولى طبعاتها عام 2008م بالقاهرة،يلاحظ أن هذا العام وما تلاه شهد أوج انتشار لقيته نظرية ما بعد الاستعمار فى أوساط النقد العربى؛بمعنى أن كتابة الرواية توازت مع هذا الانتشار الواسع للنظرية فى الثقافة العربية،وإن كان ظهورها سابقا على صدور الرواية،ومن حيث الموضوع فالاتصال بينهما أشد ما يكون؛فنظرية ما بعد الاستعمار قامت بالأساس لتفكيك الخطاب الاستعمارى وفضح سلوكياته،وكذلك بيان الآثار الكارثية له فى المستعمَر سياسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا،وكذلك آثارها في التقدم والثراء الذي نعم به الغرب نتيجة استغلال المستعمَر،وتسير الرواية فى هذين الخطين؛"فقد درست النظرية ما درسته الرواية من الآثار التى تركتها حركة الاستعمار على المستعمَر والمستعمِر"[1].

واستعرضت تلك الرواية كثيرًا من قضايا الدراسات الأدبية لما بعد الاستعمار الأدبية،مثل: العلاقة بين الأنا والآخر،والآثار الكارثية للحقبة الاستعمارية سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا، وقضية طمس الهوية والتذويب،وقضية الهجرة والإزاحة عن المكان،وغيرها من القضايا المتشابكة؛ومن ثم بدت تلك الرواية خطابًا ما بعد استعمارى،وبلغة أخرى بدت لونًا من ألوان السرد المضاد أو سرد المقاومة أو الكتابة ضد الإمبراطورية، وذلك يظهر في كثير من صفحاتها بداية من العنوان الذي يشير إلى موضوع تلك الرواية،ومرورًا بالبنية الوثائقية المضمنة داخلها من مخطوطات وكتب وأبحاث ولوحات فنية،ثم البنية الفنية لها وخصائص تشكلها،وهذا

1- خيري دومة،عدوي الرحيل؛موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية ما بعد الاستعمار،ص 9.

ليس بمستغرب على صنع الله إبراهيم؛فهو من أهم كتاب الوطن العربي اهتمامًا بمثل هذه الموضوعات.

وتدور أحداث تلك الرواية بين حدثين متتابعين يمثلان القسمين المكونين لها، ففى القسم الأول وعنوانه بواتييه وهو اسم الجامعة الفرنسية التى تقع في حي بواتييه التاريخي،يعقد المؤتمر الأول بين جنباتها بسبب مرور مائتى عام على الحملة الفرنسية على مصر تحت عنوان:بونابرت في مصر؛أضواء عربية جديدة،نوفمبر2005،ودعى إليه عدد كبير من الباحثين العرب والغربيين ومنهم الفرنسيون بطبيعة الحال.

والشخصية الرئيسة هى الراوى د.شكرى المؤرخ المصرى وأستاذ التاريخ في جامعة القاهرة، وهو سافر إلى فرنسا لحضور هذا المؤتمر الذي يناقش الحملة الفرنسية على مصر والشام، وعرض وجهات النظر المختلفة في بحوث الفرنسيين المشاركين في المؤتمر، ومعهم عدد كبير من العرب الذين جاءوا من بقاع شتى،منهم المصري والتونسي والجزائري والمغربي والفلسطيني والعراقي واللبناني والسوري،وهم يعيشون جميعًا في دول المركز الأوروبي والأمريكي خارج أوطانهم الأصلية؛إذ هاجروا واستقروا في دوله.

وقدم هؤلاء الباحثون بحوثهم حول الخطاب الاستعمارى المصاحب للحملة الفرنسية،كما قدموا نقدهم للحجج الواهية والتعليلات الزائفة للاستعمار،في قراءة طباقية للخطابين؛خطاب المستعمِر وخطاب المستعمَر،ومن ثم كشفوا زيف الصورة التي حاول المؤرخون والرسامون الفرنسيون تقديمها عن نابليون بونابرت،كما رصدوا آثار الحملة الكارثية فى كل وجوه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، والأكثر من ذلك أنهم استخدموا مصطلحات النقد ما بعد الاستعمارى في أبحاثهم.

ويبدأ الراوي د.شكري بتقديم الشخصيات عبر مجموعة قليلة من الإخبارات السردية، عن درجاتهم العلمية وتخصصاتهم البحثية وعناوين بحوثهم التي يتقدمون بها

للمؤتمر،وبعض نتف قليلة عن حياتهم الشخصية، دونما دخول في تفصيلات أو تفريعات تبعد عن الموضوع الأساس للرواية.

أما القسم الثاني المعنون بـ

باريس مكان عقد المؤتمر الثاني فلمناقشة القانون رقم 158 لسنة 2005،وهو المسمى بقانون رد الاعتبار للاستعمار،وهو القانون الذي يبرئ ساحة الجنود والضباط الفرنسيين الذين اشتركوا في استعمار الجزائر من أفعالهم البشعة وجرائمهم المروعة، ومعهم 200 ألف جزائري تعاونوا مع الجيش الفرنسي،ويضمن لهم عدم التعرض للمساءلة القانونية، بل الأكثر من ذلك الاحتفاء بهم ومنحهم أنواط التكريم.ويتوسع هذا القسم في تفكيك الخطاب الاستعماري،ورصد آثاره في الجزائر؛ لأن هذا القانون يتعلق بالأساس بالحالة الجزائرية.

ويؤكد هذا القانون تعصب الاستعمار الفرنسى وعنصريته المفرطة عن غيرها من الإمبراطوريات السابقة كلها؛ولهذا السبب تأخر ظهور نظرية ما بعد الاستعمار فى فرنسا عن كل بلاد أوروبا وأمريكا،"وكانت الحجة المعتمدة في ذلك تستند إلى كونها نموذجًا بحثيًّا دخيلًا على فرنسا،انتقلت من المستعمرات البريطانية ومن الثقافة الأمريكية" [1].

وسيركز تحليل رواية القانون الفرنسى على جانبين،هما:القضايا التى تناقشها الرواية،والبنية السردية لها،وفيما يأتى تحليل كل منهما:

أولًا : القضايا التى تناقشها رواية القانون الفرنسى :

لعل من أهم القضايا التي تناقشها الرواية محل التحليل:ثنائية الأنا والآخر التى توضح طبيعة العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر،والآثار الكارثية للاستعمار في البلاد المستعمَرة،والتذويب وطمس الهوية،والهجرة والإزاحة عن المكان،وتناقض الخطاب الاستعماري،والاستشراق الفني الفرنسي والمرأة الجزائرية،ويمكن عرض هذه القضايا على النحو الآتى:

1- ثنائية الأنا والآخر:

تعد هذه الثنائية الفكرة المركزية في الخطاب الاستعماري؛فهى التى يبنى عليها كل آلية بعد ذلك،فأول شيء فعله الغرب حتى يستطيع السيطرة على الشرق هو خلق صورة خاصة له

1- مكي سعد الله، دراسات ما بعد الكولونيالية الفرنسية، مجلة تبيين للدراسات الفكرية والثقافية، المغرب،2022م،ع39،مج10،ص3.

تتمتع بالتضاد المباشر مع الغرب وقيمه الحضارية بحيث يبدو الاثنان بوصفهما مجموعة من الثنائيات المتقابلة، مثل الأبيض / الأسود، متحضر /بدائي، خير /شرير، جميل / قبيح ، إنسان /وحشي ، وقد أسس التصور السابق الذي صُنِع علاقات الهيمنة والسيطرة؛ومن ثم التمييز بين المركز والهامش،والمستعمِر والمستعمَر.

ويكون الشرق في هذه الثنائية إبداعًا غربيًّا تمامًا، وليس على صورته الحقيقية؛إذ تحول الشرق إلى مجموعة من النصوص المكدسة في الكتب والتقارير والصور والرسومات الاستعمارية،" وقد اكتسبت هذه الأشكال الرمزية قيمة الحقيقة بالاستعمال والألفة، ومكونة من نواتج القوى الإمبريالية أو من يمثلونها " [1] .

ولكل ما سبق يعد الآخر موضوعًا مركزيًّا، ومفهومًا تأسيسيًّا في نقد ما بعد الاستعمار؛ فهو الركن الثاني من الأركان التي تقوم عليها النظرية،وبدونه لا يمكن لها أن تكون أصلًا، فأركان النظرية الأنا / المستعمِر،والآخر/ المستعمَر،وأشكال العلاقة بينهما؛ولذلك فالقراءة الطباقية هنا تفرض نفسها؛فلا بد من النظر إلى الخطابين معًا وتحليل كل منهما، فخطاب الآخر الشرقي هو رد على كل الأساطير التي لفقها الغرب عنه .

وتستدعي الرواية محل التحليل الأساطير التي روجتها الحملة الفرنسية عن مصر التى تمثل الآخر المستعمَر؛فهى تبدو فى صورة بلد ساكن، يعوم على بحر من الرمال في صحراء متربة، وبشر يعانون الجهل والفقر والمرض، بلد ينام فى سبات عميق منعزل تمامًا عن العالم وتطوراته، ويعاني الانهيار الثقافي والاجتماعي والاقتصادي.هذه صورة مصر والمصريين في الخطاب الاستعمارى للحملة الفرنسية، أما بعد هذه الحملة وفي غمضة عين تحولت مصر إلى شيء آخر،؛إذ تطور اقتصادها وأصبحت منفتحة على العالم من حولها،وكذلك تقدم نظامها الاجتماعي والسياسي.

1- سارة ميلر، الخطاب، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة،2006م،ص 121.

وهذا التحول حدث بسبب الالتزام الأخلاقي الذي أخذته فرنسا على عاتقها لمساعدة الشرق، أو ما أسمته الأدبيات الغربية بمسئولية الرجل الأبيض لمساعدة الشرق،"فقد أجمع المؤرخون على أن مصر كانت بلدًا يسوده الظلام، فلم يكن من الممكن إنقاذ البلد الغارق فى ظلمات الجهل والتخلف إلا بإحداث تغيير فى بنية النظام السياسى؛لأن المجتمع المصرى فى حالة عقم تام؛ومن ثم ليس هناك مخرج إلا على يد تدخل أوروبى"[1].

ولكن هناك مصر الأخرى الحقيقية، وليست مصر التى تبدو فى النصوص واللوحات الاستعمارية التي كانت تعيش هذه الفترة، وهذا ما قدمته الرواية فى مراجعة ناقدة للخطاب الفرنسي الاستعمارى بقراءة طباقية لكل من الخطابين؛خطاب المستعمِر وخطاب المستعمَر، من المصادر التاريخية القديمة والحديثة للمؤرخين من كلتا الثقافتين، بل على العكس من ذلك أكدت الرواية أن الحملة الفرنسية أجهضت مشروعات التحديث التى كانت مصر بسبيل إنجازها؛" فقد كانت مصر فى ذلك الحين محتكة بالعالم من خلال التجارة الدولية، وأنها كانت تموج بالتيارات وعلى شفا تغيير جذرى أحبطته الحملة"[2].

وعرضت الرواية محل التحليل على ألسنة الباحثين المشاركين ردودًا قوية تقضى على أساطير الخطاب الاستعمارى،من خلال نتائج الأبحاث الحديثة، ومنها أبحاث لمؤرخين فرنسيين،مثل: أندريه ريمون، وهويه،وبيتر جران الذي أكد أن الاستعمار الفرنسي أعاق عملية التقدم المصري التي كانت موجودة، ودحض فكرة الانهيار العثماني، وأشار إلى أن الاستعمار أضر بالطبقات الوسطى، والاقتصاد المصري، والثقافية العقلانية، وقال ملخصًا تحليلاته : " إن الحملة الفرنسية أجهضت المشروع التحديثي المصري"[3].

وتوضح رؤية الراوى لنفسه وللآخر طبيعة العلاقة بينهما،وهذا الملمح يعد من التيمات الرئيسة التى تلح عليها رواية ما بعد الاستعمار؛فالراوى(الشخصية الرئيسة،وهو أستاذ فى التاريخ) يبدو دائمًا مقارنًا حاله وأحوال بلاده بالآخر الغربى منذ بداية رحلته إلى فرنسا، فالطائرة المصرية

1- صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي، دار هنداوي للنشر، القاهرة،2008م،ص 79.

2- نفسه ، ص 61.

3- نفسه ، ص 54.

التى ركبها مع بعض الفرنسيين لا يزال موعدها مجهولًا، كما أنها تأخرت ساعة عن موعدها،ولم يغضب أو يتذمر أحد من الركاب وروائح العرق فى الطائرة المصرية تطارده أينما جلس؛لذلك قرر الجلوس بجانب امرأة فرنسية شقراء جميلة.وهو يرى مصر من الطائرة فى لوحة" ترابية بنية بلا خضرة حول مدن صغيرة في شبه دوائر غير محددة وعشوائية، وبداخلها مبان متناثرة في غير نظام"[1].

وفي مقابل عدم الالتزام بالموعد والعشوائية وعدم النظام وافتقاد النظافة وانتشار روائح العرق التى تحدث عنها الراوى وقت إقلاع الطائرة من مصر،ثمة صورة أخرى مغايرة لذلك عندما وصل الراوى إلى فرنسا،بدا الأمر مختلفًا من أول وهلة منذ وصوله إلى مطار أورلى؛حيث جرت مراقبة الجوازات بتدقيق بالغ،وكل شيء جرى بعد ذلك منظمًا ومرتبًا؛فاللافتات فى كل مكان، والشوارع نظيفة ومرتبة، والأرصفة عريضة للمشاة، وإن حدث وتأخرت الطائرة أو القطارات فإن الاعتذارات موجودة ومتكررة،بل حتى التعويضات المادية المالية عن هذه التأخيرات تبلغ مبالغ طائلة،يستطيع أن يطالب بها من وقع عليه الضرر من التأخير.

وتمتد المقارنة بين سلوكيات الناس فى مصر وسلوكيات الناس فى فرنسا؛فالفرنسيون يقفون لانتظار الحافلات،" لكن لا أحد يسأل ، ولا سائق يصيح : واحد الجراج أو السلام ، ولا أحد يعترض رغم الساعة المتأخرة والبرد والمطر...،ولم يدفعه الضيق إلى الاكتفاء بالوقوف فى أقرب نقطة ، أو فى عرض الطريق...،وإنما ولج إلى الباحة الممتدة أمامها وأنزلنى بالظبط أمام باب يحمل لافتة الاستقبال "[2].

بعد ذلك ، يدور كل شيء فى الحياة ، فى الفندق، فى الشارع، فى المطاعم منظمًا ونظيفًا ومرتبًا؛ليس هناك عشوائية كما فى القاهرة، أو روائح كريهة كالتى على الطائرة ، ولا سلوكيات انفعالية وعشوائية وغير مبررة، الحياة يسودها النظام والنظافة، وتحرصها سلوكيات الناس.

1- صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي، ص 75.

2- نفسه، ص 79.

وهذا ما يظهر أيضًا فى رؤية الآخر الغربى للشرقى العربى والمسلم (رؤية المستعمِر للمستعمَر)،مما يبدو رؤية شخصية فريدة للعالم العربى والمرأة العربية؛حيث يسود العالم العربى نظم ديكتاتورية وقهر اجتماعى وفقر وتخلف ينعكس صداها على المرأة العربية أيضًا:" قالت : فى العالم العربى بؤس سياسى وحلول أمنية وديكتاتورية،والرقابة ليست فردية فقط وإنما قضائية ومجتمعية أيضًا "[1].

هذه صورة العالم العربى كله؛بؤس وفقر وتخلف ونظم ديكتاتورية عنيفة تعصف بالديمقراطية والحريات،ورقابات متعددة تظهر أن المجتمع لا يأبه بقيم الحرية والمساواة،وهذا ما يبدو فىنظرة الإنسان الغربى للعرب والمسلمين عمومًا؛فهم أعداء للغرب وللحضارة الغربية ويقفون منها على طرفى نقيض؛"لأنهم مسلمون وسود،ولأنهم يعادون الغرب والحضارة المسيحية واليهودية"[2].

وتفصح ممارسات الغربى عن ازدواجيته وعنصريته تجاه الآخر،وهذا ما حدث مع الشاعر العربى محمد الحارثى"وهو يروي لى فى لهجة مريرة ما وقع له عندما أراد عبور الحدود المغربية إلى إسبانيا ، فرغم أنه يحمل أوراقًا كاملة ونقودًا كافية،فإن الشرطة الإسبانية احتجزته واعتدت عليه بالضرب، ثم أفرجت عنه بعد عدة أيام دون أن تقدم له أية تبريرات "[3].

ويدخل عنصر السخرية أيضًا فى نطاق رؤية الغربي لكل ما هو آخر عربي،ويظهر ذلك فى حوار الراوى مع شخصية سيلين التى"قالت:أنا لا أتحدث عادة بهذه الصراحة،لكنى استرحت إليك فأنت تجعلني أضحك.

قلت : مهرج يعني؟ قالت بسرعة:أبدًا"[4].

1- صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي،ص 152.

2- نفسه، ص 171.

3- نفسه، ص 92.

4- نفسه ، ص 218.

وتأتى خاتمة الرواية لتؤكد طبيعة العلاقة المتوترة بين الغرب والشرق، وطبيعة رؤية الغربى للعربى، وذلك فى خطاب تركته سيلين للروای الشخصية الرئيسة قبل سفره بلحظات؛حيث "فتحت الباب وفوجئت ببرنامج المؤتمر الذى أعطيته لها بعنوانى علي الأرض أمام الباب، التقطته ووجدت سطرًا بالقلم الرصاص أسفل عنوانى استغرق منى بعض الوقت كى أفك حروفه : ردى بالظبط:إنك إنسان ساذج ومتخلف "[1].

وتنتهى الرواية على هذا المشهد الدال، فسيلين لم تطرق بابه ، ولم تعتذر له، ورمت له الخطاب ببرنامج المؤتمر مكتوب عليه هذه العبارة الشائنة التى تؤكدها سلوكياتها مع الراوى، وكيف تنظر إليه بغرور، وتعامله بكبر وصلف ظاهرين، وتنهره كلما حاول الاقتراب منها، فهو فى النهاية : الشرقى الساذج المتخلف،وهكذا فشلت العلاقة بينه وبين سيلين،وصح لها أن تفشل، وهذا الوصف ينطبق على العالم الذى قدم منه الراوى،ففشل علاقة الراوى بسيلين هو رمز لاستحالة العلاقات الطبيعية بين الشرق المستعمَر والغرب المستعمِر.

2- الآثار الكارثية للاستعمار فى البلاد المستعمَرة:

مما استخدمته الرواية من آليات ما بعد الاستعمار أيضًا الحديث عن الآثار الكارثية التي خلفها الاستعمار الفرنسي في كل المستعمرات،خاصة في مصر والشام والجزاير وساحل العاج ومدغشقر،وكيف أنها طالت كل أوجه الحياة الإنسانية حتى القتل الذي طال النفوس والأرواح؛حيث رصدت المذابح الفظيعة التي ارتكبها جنود الحملة الفرنسية عمدًا في مصر، ومذبحة يافا في الشام وساحل العاج ومدغشقر التي قتل فيها مئات الآلاف من الأرواح.[2]

كذلك المذابح التي ارتكبها جنود الحملة الفرنسية في الجزائر خاصة؛حيث أبادوا قرى بأكملها،واغتصبوا الأراضي وأعطوها للمستوطنين الفرنسيين،ونهبوا الآثار،وسرقوا أكثر من 50 مليون دولار،كما أنهم حولوا الشعب الجزائري إلى فئران تجارب،واستخدموه في التجارب النووية

1- صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي، ص 228.

2- انظر : نفسه، ص 83 ، 86.

التي قاموا بها في الصحراء الجزائرية التى راح ضحيتها حوالى 40 ألف جزائري،وكان لهذا أضراره الشنيعة بالبشر والبيئة.

وكذلك كانت هناك الآثار الكارثية على الاقتصاد الجزائري؛إذ سرق الاستعمار الفرنسى الأموال، واستخرج الذهب وحوله إلى فرنسا مباشرة، وعمل على إفقار الجزائريين بطريقة ممنهجة، من خلال نزيف المواد الخام وتحويل الجزائر إلى سوق للمنتجات الفرنسية، وربط الاقتصاد الجزائري بالاقتصاد الفرنسي عبر مجموعة من السياسات النقدية،منها ربط العملة المحلية بالفرنك الفرنسي، وهذا على مستوى المستعمرات الفرنسية في الجزائر وإفريقيا كلها.

ومن خلال هذه السياسات الممنهجة أوقف الاستعمار الفرنسي النمو الحضاري للجزائر طيلة 132 سنة هي فترة الاستعمار الفرنسي، ولا تزال الجزائر إلى الآن تعاني آثار هذا الاستعمار البغيض.

3- التذويب وطمس الهوية:

يحرص كل استعمار أول ما يحرص بعد السيطرة العسكرية،على إخضاع العقول لقبوله والتعاون معه، وأول خطوة يمارسها في ذلك إضعاف الهوية الوطنية واتباع آليات التذويب لطمس هوية المستعمَر، وذلك من خلال ما يسمى في خطاب ما بعد الاستعمار بإعادة خلق الفضاء الاستعماري لمحو ذاكرة المستعَمر وإقامة ذاكرة استعمارية جديدة؛ومن ثم يكون من السهولة التحكم فيه وتوجيهه.

ومن أهم الآليات التي ذكرتها رواية القانون الفرنسى واستخدمها الاستعمار الفرنسي في محو الذاكرة القومية للشعب الجزائري المستعمر:سياسات الإحلال اللغوي وإعادة إنتاج الفضاء الاستعماري،وتدمير العادات والتقاليد المحلية،والحملات التبشيرية،وإنشاء الرابطة الفرانكفونية العالمية.

وتعد اللغة أهم وسائل الإنسان للتعبير عن نفسه وحاجياته، وهي كذلك تعكس تصوره عن العالم الذي يحيا فيه، وعن طريقها يعيد تشكيل العالم من حوله، وهي أهم محدد لهويته؛لذا فاللغة من الأهمية بمكان فى الخطاب الاستعمارى؛لأنه عن طريقها صنع صورة نمطية، ونموذجًا جاهزًا عن الآخر الشرقي، ونشره ووزعه عبر مجموعة من

النصوص التي صبغ عليها صفة الثبات؛لذا "فاللغة تعد واحدة من المحددات الأساسية للسلطة الكولونيالية "[1] .

ولأهمية اللغة في صياغة النموذج وصناعة الصورة عملت السلطات الاستعمارية دومًا على إضعاف اللغات المحلية ووصمها بكل صفات الضعف والركاكة والتخلف، وفي الوقت نفسه عملت على الترويج للغتها ووصفها بكل صفات الكمال اللغوي، ونشرها بكل السبل الطوعية والإجبارية أيضًا، ومنها سياسات الإحلال اللغوي الذي نشرته على كل الجغرافيا المستعمَرة.وهناك بحث أشارت إليه رواية القانون الفرنسى بعنوان:سياسات التذويب والاستيعاب، وهو يتحدث عن هذه الوسائل وكيف استخدمتها فرنسا في محو الذاكرة القومية للجزائريين،ومن أهمها:إضعاف اللغة العربية ومنع تدريسها في المؤسسات التعليمية الجزائرية، ونشر اللغة والثقافة الفرنسية،وضرب وحدة العرب والبربر.[2] وتحدث أستاذ من إفريقيا عن أن اللغة هي أخطر نتائج الاستعمار،وأشار إلى الآثار السلبية الناتجة عن استخدام المستعمَرين للغة غريبة عنهم تمامًا ، وكيف يعيد المستعمِر تشكيل العالم المستعمَر عن طريق اللغة.

وهذا ما كررته رواية القانون الفرنسى؛حيث استخدمت المصطلح نفسه المستخدم في دراسات ما بعد الاستعمار ، وهو إعادة إنتاج الفضاء الاستعماري، من خلال بحث لأحد الباحثين بعنوان:مواقع الذاكرة الكولونيالية، ذكر فيه أن فرنسا في سبيل محو الذاكرة القومية للجزائريين ذاكرة المستعمَر وإحلال ذاكرة استعمارية أو ذاكرة المستعمِر بدلًا منها،أطلقت أسماء قادتها العسكريين والمستكشفين والبعثات التبشيرية على أسماء الشوارع والميادين، كما أنها صنعت تماثيل نصفية لهم ووضعتها في الميادين المهمة، وكذلك أقامت المتاحف التي تزور التاريخ لتمجد إنجازات فرنسا[3] .

1- هيلين جيلبرت، الدراما ما بعد الكولونيالية، ترجمة: سامح فكري، مركز اللغات والترجمة،أكاديمية الفنون،القاهرة،2000م،ص 229.

2- انظر : صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي، ص 85 ، 96.

3- انظر : نفسه، ص 107.

ولأهمية العامل اللغوي في محو ذاكرة المستعمرات الفرنسية كلها،أنشأت فرنسا رابطة دول الفرانكفونية،وهي بالأساس رابطة استعمارية لتجميع مستعمرات فرنسا الناطقة باللغة الفرنسية تحت إهاب واحد ولغة واحدة لخدمة الثقافة الفرنسية،ووصفتها رواية القانون الفرنسي على لسان إحدى المتحدثات بالآلة الحديثة التي تساعد فرنسا على الاحتفاظ بمستعمراتها.

4- الهجرة والإزاحة عن المكان:

من الموضوعات التي تناولتها رواية القانون الفرنسي موضوع الهجرة إلى المركز الاستعماري والاندماج فيه من عدمه،"ويمثل الاهتمام بالمكان والإزاحة عن المكان ملمحًا رئيسيًّا من ملامح آداب ما بعد الكولونيالية"[1].ويلاحظ أن الرواية محل التحليل بهذا الموضوع كثيرًا؛حيث تكررت الإشارة إليه وإلى نتائجه عشرات المرات في صفحات الرواية المختلفة؛حيث"تعد ظاهرة الهجرة إلى الفضاء الاستعماري في القلب من نظرية ما بعد الكولونيالية؛لأنها تتقاطع مع موضوعات الهوية، والإحساس بالاقتلاع والذاكرة، والهجنة الثقافية، والعلاقة مع الآخر"[2].

فالهجرة العكسية هنا من دول الأطراف إلى المركز الغربي أثر من آثار التجربة الاستعمارية، وناتج من نواتجها؛فالمهاجر ترك وطنه الأصلي بحثًا عن الفردوس المفقود، مجتمع الرفاهية وفرص العمل المتنامي؛لأن الفرص انعدمت في بلده؛نتيجة للسياسات الاستعمارية التي عملت على إنهاك الاقتصاديات الوطنية،من خلال التخريب العمدي والممنهج للأبنية الاقتصادية فيها، باستنزاف ثرواتها، ثم تحويلها إلى أسواق لما تعيد إنتاجه مما سلبته من مواد خام من هذه البلاد بحيث تظل في ترس العملية الاستعمارية ضمن آليات التبعية الاقتصادية، وتظل دائرة في هذا الفلك الدوار.

1- بيل أشكروفت، الرد بالكتابة؛النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة ،ص27.

2- حمزة بو زيدي، التمثيل السردي للمهاجر في الرواية الجزائرية الجديدة، رسالة دكتوراه غير منشورة،كلية الآداب واللغات،جامعة محمد دباغين، الجزائر،2021م،ص27.

ونتيجة لذلك لا يجد شباب هذه البلاد من ملجإ إلا الهجرة إلى المركز الغربي علّه يجد فرصة للعيش، وبذلك يقع موضوع الهجرة في الفضاء الاستعماري في المتصل ما بين المرحلة الاستعمارية وما بعدها، فالاستعمار لا يزال قابعًا هناك في الأطراف يباشر عمله من بعيد،"ولاشك أن دراسات ما بعد الكولونيالية ببعدها الإبستمولوجي النقدي قد دخلت الفضاء الفرنسي وأثرت بسياقها الفكري في أعمال الشغب لتشرين الثاني نوفمبر 2005"[1].وهذا التاريخ في الشهر نفسه والعام نفسه الذي عقد فيه المؤتمر الثاني في باريس، ولاقى ردود أفعال واسعة ومتضاربة.

وبدأ ذكر هذا الموضوع في الرواية محل التحليل بإشارة عابرة أول مرة عن أحداث الشغب، ثم تتوالي تفاصيلها، عندما قتل شبان من شباب الشمال الإفريقي صعقًا بالكهرباء داخل محطة كبيرة للكهرباء، وذلك بعد أن هربا من الشرطة نتيجة لتنعتها معهما واضطهادها لهما، وما إن علم أهالي الشبان وأصدقائهما بذلك حتى نشروا الموضوع ونزلوا إلى الشوارع احتجاجًا على هذا الظلم والسلوك العنصري البغيض من جهاز الشرطة، وسرعان ما انضم إلى المحتجين شباب آخرون من جنسيات مهاجرة أخرى من كل المستعمرات الفرنسية السابقة،وشيئًا فشيئًا انتشرت المظاهرات وتحولت إلى أحداث شغب وعنف في كل أرجاء فرنسا وليس في باريس فحسب، بل توقع المحللون انتقال الأحداث إلى بلاد أخرى من أوروبا، ورافق ذلك حرق للسيارات، وتصاعدت وتيرة الأحداث،ولم تستطع السلطات الفرنسية السيطرة على الموقف؛فأعلنت حالة الطوارئ، وحظر التجوال، ونزل الجيش الفرنسي إلى الشوارع لاحتواء الموقف.[2]

ومن هنا يمكن القول:تعاملت السلطات الفرنسية مع الموقف بعقلية المستعمِر القديم، فلم تحاول تهدئة الأوضاع بأي شكل، بل كان رد فعلها عنيفًا وعنصريًّا إلى درجة كبيرة،؛فقد انتشرت

1- مكي سعد الله، دراسات ما بعد الكولونيالية الفرنسية، ص 2.

2- انظر: صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي، ص6، 15، 23 ، 24 ، 30 ، 51 ، 59، 61، 67، 75، 87، 91، 94 ، 96 ، 113 ، 119 ، 127، 132.

الشرطة تهدد المتظاهرين وتعدهم الويل والثبور، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل وصل إلى نعت ساركوزي وزير الداخلية المتظاهرين بأبشع النعوت ووصفهم بأنهم حشرات ويجب استخدام المبيدات الحشرية في مواجهتهم،كما طالب بعض المسئولين بسجن المتظاهرين ومعاقبتهم ثم ترحيلهم ترحيلًا قسريًّا من فرنسا،"ومن خلال هذه الأحداث نستعيد العلاقة الاستعمارية بكل تجلياتها ورمزيتها وفق دلالات موزعة داخل نسيج النص في بنية للسرد الإمبراطوري "[1].

وإزاء هذا الوضع لم يجد هذا الشباب من يستوعبه ويعمل على محاولة إدماجه ضمن النسيج الاجتماعي لمجتمع المركز الغربي، فعانى الاغتراب على المسستوى الفردي وعلى مستوى الجماعة المهاجرة في ظل " هذه المجتمعات التي لا تستوعب الآخر المختلف عرقيًّا وثقافيًّا؛ ولذلك يسود شعور لدى المهاجرين في مثل هذه المجتمعات بأنهم ليسوا في مركب مصيري واحد مع أهل البلاد الأصليين".[2]

وأشارت الرواية محل التحليل على لسان شخصية سيلين إلى فشل السلطات الفرنسية في صنع برامج اجتماعية تساعد بها المهاجرين على الاندماج في المجتمع الفرنسي؛لأنها موظفة في إحدى هذه المؤسسات التي تعمل على إدماج المهاجرين داخل نسيج المجتمع الفرنسي، وربما يرجع ذلك إلى العنصرية التي تنتشر بين مؤسسات المجتمع الفرنسي نفسه في الآونة الأخيرة،و"هنا يتحول المهاجر إلى منفي، وتتحول الهجرة إلى نفي بسبب الشعور بعدم الاندماج؛ مما يزيد إحساسه الدفين بأنه منبوذ "[3].

فأهل البلاد الأصليين يرون المهاجر غريبًا وطارئًا ومنغصًا للعيش وسالبًا للامتيازات التي يتمتعون بها، ولكي يبرروا ذلك التصور الذي اخترعوه عن هذا المهاجر الغريب" فقد بدءوا بنعت المهاجرين وأبنائهم بأشع النعوت من قبل المؤسسة الحاكمة في فرنسا بدعوى عدم قابليتهم

1- حمزة بو زيدي، التمثيل السردي للمهاجر في الرواية الجزائرية الجديدة، ص 82.

2- مصطفى عبد العزيز موسى، قضايا المهاجرين في أوروبا، مركز الدراسات والبحوث الاستراتيجية،أبو ظبى،الإمارات العربية المتحدة، 2010م،ص 57.

3- إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة: محمد عناني، رؤية للطباعة والنشر، القاهرة،2006م،ص 95.

للحضارة واستعدادهم لفكر الأنوار؛حيث تثبت الدراسات الأكاديمية في الحقل المعرفي وتحليل النتائج المدرسية ارتفاع نسب الرسوب والفشل الدراسي عند التلاميذ والطلبة المهاجرين"[1].

وعلى الجانب الآخر فالمهاجر يرى في سلوكيات أهل البلد الأصليين عائقًا دون محاولته الاندماج، فهو يرفض هيمنته عليه بشتى الطرق، وهنا يحدث الصراع بين الطرفين المتقابلين؛ولذا فالراوي ومعه بعض الشخصيات المشاركة في المؤتمر يتعجبون من تدفق سكان المستعمرات السابقة من بعض الدول الإفريقية ومن جزر الكاريبي والهند الصينية وأمريكا اللاتينية وغيرها من مستعمرات فرنسا السابقة في ظل هذا التعامل السيئ من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية ، وهذا ما يعرف في دراسات ما بعد الاستعمار بلذة المستعمر، كما أشارت إليه الرواية[2].

5- تناقض الخطاب الاستعماري:

من الموضوعات التي تعرضت لها رواية القانون الفرنسى، التناقض الذي وقع فيه ما أسمته بمجموعة المؤرخين الجدد في فرنسا، تلك المجموعة التي ولدت بعد الحرب العالمية الثانية وأعادت قراءة التاريخ الفرنسي الحديث، ومنه إعادة النظر في الاستعمار الفرنسي في أوروبا وغيرها من بلدان الشرق، وقامت بنقد الحملة الفرنسية ونقد نابليون نفسه، ورصد آثار الاستعمار الفرنسي فى إيطاليا اجتماعيًّا واقتصاديًّا،وذكرت عدد المجازر التي ارتكبها نابليون فى حق الإيطاليين.

1- مكي سعد الله، دراسات ما بعد الكولونيالية الفرنسية، ص 13.

2- انظر: صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي،ص 132 .

ويختلف الأمر حين تحدث هذه المجموعة عن استعمار فرنسا لمصر؛فالتناقض يلف كلامهم، وتستعرض الرواية محل التحليل كثيرًا من أسماء أعضاء هذه المجموعة وآرائهم المتناقضة صدد الحملة الفرنسية على مصر، ومنهم المؤرخ فوريه الذي أكد أن مجد نابليون صنع من خلال مجموعة من الأساطير والأكاذيب التي كان الشعب الفرنسي على استعداد نفسي لقبولها، لكنه بعد ذلك يمجد الحملة الفرنسية وآثارها التقدمية.

وكذلك ما تحدث به المؤرخ جان جويل في كتابه المعنون بـــــــــــــــ مصر الفرنسية في حياتها اليومية،وكما يظهر من عنوان الكتاب أنه حول مصر إلى مصر الفرنسية، ففي الوقت نفسه الذي يسخر فيه من المؤرخين الذين يمجدون شخصية نابليون وحديثه عن مجازر الحملة الفرنسية في دمنهور،يتحدث عن الضمير الحي للغزاة الفرنسيين،وكأنهم بدلوا بآخرين،كما أنه في آخر الكتاب يتحدث عن الآثار الرائعة التي تركها الجيش الفرنسي،ومنها قوله:" فبغير إغارتهم على مصر لما استطاعت أن تجد طريقها إلى التاريخ؛لذلك علينا أن نستمر في تكريم نابليون ومونج ".[1]

ومن أشهر المؤرخين الجدد الذين وقعوا في التناقض أيضًا هنري لورانس؛حيث ندد في بداية كلامه بالأفعال المشينة والبشعة للحملة الفرنسية على مصر، وكيف تخلت عن شعارات الثورة الفرنسية وعن مبادئ حقوق الإنسان، لكنه بعد ذلك الكلام الناقد للحملة على مصر يؤكد أهمية المشروع الحضاري التقدمي لهذه الحملة ولبونابرت[2].

وهكذا لف التناقض خطاب مؤرخي الاستعمار أنفسهم بشكل واضح لا لبس فيه؛مما يعكس وجهة نظر إقصائية وأحادية وعنصرية، ومن خلال هذا التناقض الصارخ تُدرَك لعبة الخطاب الاستعمارى؛" فالنص الكولونيالي خطاب مزدوج يجمع بين الخدعة والقناع، الخدعة من

1- صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي، ص51.

2- انظر : نفسه، ص 51 ، 52 ، 53.

خلال التضليل الثقافي وصناعة التزييف والتلاعب بالمصطلحات والمفاهيم، والقناع بالتسويق للأفكار المدلسة الكاذبة للتلاعب بعقول العامة ومعتقداتهم "[1].

6- الاستشراق الفنى الفرنسى والمرأة الجزائرية:

لم يترك الاستعمار الفرنسي- شأنه شأن كل حركة استعمارية - شيئًا يوظفه لخدمة مصالحه إلا فعله، ومن ذلك استخدام الصورة في تزييف وعي المستعمرين؛إدراكًا منه لأهمية عنصر الصورة في تثبيت دلالات بعينها تكون أسرع انتشارًا وأكثر تأثيرًا من أية وسيلة أخرى، ذلك أنها لا تتطلب أية خبرة في إدراكها، فيكفي النظر إليها ليحدث التأثير المطلوب، وذلك عبر مجموعة كثيرة من الصور والرسوم التي تعمل على تكوين ذاكرة بصرية لدى المستعمَرين عن أنفسهم وعن المستعمِر ذاته،" فالذاكرة البصرية هي المخزون الأول والأيسر في استدعاء المفاهيم"[2].

ومن الفنون البصرية التي استغلها الاستعمار فن الرسم والتصوير، ومن خلالهما حاول تثبيت صورة معينة لكل من الشرقي والغربي، عبر مجموعة من الصور الخادعة والمزيفة لكل الحقائق؛إذ"استقر هذا الرسم دائمًا على تعظيم الغرب وتحقير الشرق ضمنًا، على الأقل لم يكن صراحة، في ثنائيات متعارضة من طراز المستعمِر والمستعمَر، الذات والآخر، الفرنسي والعربي"[3].

لذا اصطحبت الحملة الفرنسية معها مجموعة من الرسامين و المصورين المنتقين بعناية، في حملتها على الشام ومصر،وهؤلاء الرسامون والمصورون يجيدون تصوير الواقع تصويرًا حرفيًّا

1- مكي سعد الله، دراسات ما بعد الكولونيالية الفرنسية، ص 6.

2- إيمان أسامة محمد، المرأة كرمز في رسوم توضيحية معاصرة مستلهمة من أعمال المستشرقين،مجلة الفنون والعمارة للدراسات البحثية،كلية الفنون الجميلة،مج2،ع3،القاهرة،2021م،ص2.

3- صبحي حديدي، بونابرت في يافا؛تلفيق الإمبراطورية، مجلة الدراسات الفلسطينية،بيروت،ع123، 2020م،ص 6 .

حتى ينقلوا كل التفاصيل التي تتحول إلى معلومات مهمة، وكذلك البارعون في استخدام فنون المنظور ونسب الضوء والظلال وتوزيع مساحات الفراغ واختيار الألوان؛حيث تكون هذه الأدوات الفنية هي الموجهة والمشكلة لوعي المتلقين من المستعمَرين في مصر والفرنسيين في فرنسا، والذين تمارس عليهم لعبة الخداع أيضًا؛ومن هنا"اعتبر فن الرسم الاستشراقي واحدًا من أهم الأسلحة الغربية المعتمدة في الحرب الإيديولوجية الغربية على الشرق، كما يعتبر الرسام المستشرق واحدًا من أهم المهندسين التقنيين الذين أحرز الغرب بفضلهم أهدافه التوسعية في المشرق الإسلامي"[1].

وضمت الرواية محل التحليل مجموعتين من الصور عرضتها أستاذة لتاريخ الفن،وهى فرنسية من أصل عربي،أولاهما تضم أربع لوحات لنابليون بونابرت،واحدة منها وهو يقابل مجموعة من السياسيين المصريين،والثانية وهو يقلد محمد كريم حاكم الإسكندرية سيفًا،والثالثة وهو يزور الجنود المصابين بالطاعون،والرابعة وهو في الجامع الأزهر،وهناك مجموعة من الدلالات تعمل اللوحات على تثبيتها لدى المتلقي العربي والفرنسي كذلك، وهي مدى النبل والشرف الذي تتمتع به شخصية نابليون وكذلك كبرياؤه، وانتصاره، في مقابل صفات المصري المتوحش البربري المنهزم الخانع.

وقدمت هذه الباحثة قراءة طباقية لهذه اللوحات معتمدة في ذلك على التاريخ وعلى الخصائص النفسية والاجتماعية لكل شخصيات اللوحات من المستعمِر والمستعمَر؛فكل الأحداث التي تعرضت لها هذه الصور لم تحدث أصلًا في التاريخ، فلم يقابل الأعيان المصريون نابليون ورفضوا دعوته، وكذلك لم يقلد حاكم الإسكندرية سيفًا يومًا ما، ولم يدخل نابيون الجامع الأزهر أبدًا طيلة بقائه في مصر، هذا فضلًا عن الدلالات الموجودة عبر التشكيل البلاغي للوحات، وهكذا تنتشر الأكاذيب حتى في لوحات الفن الاستشراقي الفرنسي.

1- زينات بيطار، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي،سلسلة عالم المعرفة،المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب،ع157، الكويت،2004م،ص 13.

وجاءت اللوحات التي رسمها الرسامون الفرنسيون لتعكس صورة كاذبة وخادعة لكل من المستعمِر والمستعمَر أيضًا؛فمصر رمز الشرق فى اللوحات بدت فى صورة خيالية لا تنتمى إلى الحقيقة بشيء، وكذلك مفردات اللوحات جميعها؛ فمصر أرض قاحلة غير آهلة بالسكان؛فهى صحراء أهلها بدائيون ومتوحشون وبربريون وأعداء للحضارة والنور والتقدم؛لذلك يجب على نابليون تخليصهم من هذا التخلف والوحشية والبربرية التي يعيشون فيها؛ومن هنا يسير الفن والرسم على خطى الخطابات الإيديولوجية التبريريه الكاذبة للنزعة الاستعمارية؛ومن ثم"أكدت الأبحاث التى أجريت مؤخرًا فى المسرح والمعرفة العلمية والسينما والفن وعلم الخرائط وتخطيط المدن والمتاحف والمؤسسات التربوية والمؤسسات القانويه والطبية والسجون على الصلات المعقدة والدقيقة والمتناقضة بين التمثيلات والمؤسسات والسياسية الاستعمارية"[1].

أما المجموعة الأخرى من تلك الصور فتعرضت للنساء الجزائريات،فيما يسمى بجدلية الجيل المستعبد والتعذيب الاستعمارى للنساء؛حيث وقفت نساء المستعمرات في الشمال الإفريقي وخاصة في الجزائر فى وجه الاستعمار مباشرة وكن غصة في حلقه ونار مقاومة يحاول إخمادها لكنه لم يفلح؛لذلك حاول جاهدًا لإخراجهن من هذه الدائرة الجهادية التي نصبت نفسها لهن، وجاءت أساليبه في ذلك متنوعة ما بين محاولات الترغيب،وطمس الهوية المسلمة لهن،والسجن والتعذيب،وكان هذا أكثر ما يفعل نظرًا لصلابة موقف النساء تجاه الاستعمار، وفي النهاية كان القتل آخر ما يمكنه أن يفعله.

ولما فشل الاستعمار وفشلت كل أساليبه وجه نفسه كعادته لاختلاق الأكاذيب والروايات المزيفة والصور واللوحات الملفقة لتشويه صورة هذه المرأة المجاهدة؛فبدأ جيش الرسامين الفرنسيين في ضخ الأكاذيب المصورة التي قدمها عن المرأة الجزائرية،؛ومن ثم عرضت الرواية محل التحليل صورًا لفنان الحملة الفرنسية المشهور دي لاكروا،وهى معنونة بثلاث نساء

1- آنيا لومبا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية،ص 83.

جزائريات؛حيث نعكس الصورة ثلاث نساء ساكنات وادعات لا يفكرن في شيء كأنهن خلقن للمتعة فحسب؛فهى شبه عاريات في أوضاع مختلفة مشينة.[1]

هذه هي الصورة التي أرادها المستعمر الفرنسي للمرأة الجزائرية،وهي صورة كاذبة،أراد بها الاستعمار الانتقام؛نظرًا للدور الباسل الذي قامت به المرأة الجزائرية في مقاومته حتى إنها استشهدت في سبيل حرية بلادها،كما أن الاستعمار عذبها حتى تحولت إلى أيقونة للجهاد والمقاومة، فأصبح يشار إليها في دراسات ما بعد الاستعمار بأنها رمز التعذيب الاستعمارى؛لذا أراد الاستعمار الفرنسي تثبيت صورة مناقضة لواقع المرأة الجزائرية المحجبة واستبدال صورة أخرى مشينة بها تدور في فلك إرادته،لكنه لم يفلح في ذلك.

وهكذا شكلت اللوحات الفنية التى رسمها الفنانون الفرنسيون عالمًا مشوهًا غير حقيقى، وهى فى جلها تعبر عن توجه عام لدى الغربى فى رؤية الشرق عامة، توجه يحمل بين طياته نزعة عنصرية بغيضة لكل ما هو غير أوروبى؛حيث الأرض غير الأرض والبشر غير البشر أيضًا،"إن مقولة الجغرافيا المتخيلة في غاية الأهمية لتفكيك علاقة الفن الاستشراقى بالشرق، على اعتبار أنه- أى الفن- ينتمي إلى المؤسسة الاستشراقية بمرجعياتها الاستعمارية، فالشرق الذى صوره الأوروبي لا علاقة له بالشرق الحقيقى، بل إنه شرق متخيل لا يعكس حقائق، بل إنه يصور تمثلات وألوانًا من التمثيل؛حيث تتخفى القوة والمصلحة، إنه خلق جديد للآخر، أو إعادة إنتاج له على صعيد التصوير والتمثيل"[2].

ثانيًا:البنية السردية لرواية القانون الفرنسى:

من يتأمل فى البنية السردية للرواية محل التحليل ليرى كيف جاء تشكلها داعمًا لإظهار القضايا التي تناقشها،سيجد عناصر متعددة أسهمت فى تشكيل هذه الرواية، لعل من أهمها:الشخصيات، والحوار، والزمان، والوقفات الوصفية،والمكان،ويمكن تحليلها على النحو الآتى:

1- انظر: صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي، ص 104 ، 105.

2- سالم يفوت، حفريات الاستشراق، المركز الثقافي العربي، المغرب،1989م،ص 8.

1- الشخصيات :

من يقرأ رواية القانون الفرنسى يلحظ أنها مليئة بعدد كثير ومتنوع من الشخصيات التي تزيد على مائة شخصية، وجاءت هذه الكثرة من الشخصيات من طبيعة الموضوع الروائي وارتباطه بعلوم ونظريات متعددة في علم النفس والاجتماع والتاريخ ومعظم العلوم الإنسانية، فموضوع الرواية نفسه يتماس مع كل هذه العلوم، ويظهر منها اطلاع الكاتب على أحدث ما كتب في هذه النظرية؛لذا ثمة تعدد غير مسبوق في عدد الشخصيات بانتماءاتها العرقية والعلمية والثقافية أكثر من أية رواية من روايات الكاتب الأخرى.

وتنقسم الشخصيات في الرواية إلى قسمين كبيرين؛أولهما ما ينتمي إلى عالم الوثيقة، وهي في غالبها شخصيات تاريخية، مضى زمن طويل على موتها،ومنها شخصيات القادة العسكريين للحملة الفرنسية،مثل:نابليون بونابرت،ومنها سياسيون،مثل:محمد علي باشا،ومحمد كريم حاكم الإسكندرية، ورجال الديوان المصري،ومنها علماء،مثل:مونج،ومنها مؤرخون عاصروا الحملة الفرنسية،مثل:المؤرخ المصري الجبرتي،ومنها رسامون،مثل:دي لاكروا.

وثمة شخصيات ضمنت داخل حوارات الشخصيات الروائية، وهي متعددة وكثيرة؛فمنها شخصيات سياسية،مثل:جمال عبد الناصر،ومحمد حسني مبارك، وصدام حسين، وعمر البشير، وياسر عرفات،وساركوزي، وفرانسوا ميتران، وفيليب دولبان، وبلفور، ومنها شخصيات النواب فى البرلمان،مثل: كريستينا توبيرا،ومنها شخصيات لشعراء،مثل:أبي نواس،وأندريه جيد، ومحمود درويش، ومنها شخصيات لفنانين،مثل:مايكل أنجلو، وأم كلثوم،ومنها شخصيات لمؤرخين،مثل: مانوني،وهنري لورانس،وبيتر جران،وغيرهم.

هذا إضافة الى شخصيات الرواية الحية التي تنوعت ما بين علميين وباحثين وصحفيين وموظفين وعمال وغيرهم،فمن العلميين:البرديسي،وربيع الخطيب،ومن الصحفيين:سيلين الصحفية الفرنسية،وثمة شخصيات لباحثين لم يذكر الراوي

أسماءهم،وهناك شخصيات لموظفى المطار ومنظمى المؤتمر وعمال المقاهي والمطاعم الفرنسية،إلى آخر هذه الشخصيات.

ولعل من أسباب كثرة الشخصيات فى الرواية أنها تتجول في أزمنة مختلفة منذ الحملة الفرنسية وما قبلها إلى أيام انعقاد المؤتمر، ويوازي ذلك الاتساع الزماني انفتاح في الفضاءات الروائية كذلك،ويتنوع هذا الاتساع ما بين أماكن تاريخية قديمة متنوعة،وأماكن حديثة متنوعة أيضًا.

وأما التقديم الفني للشخصيات الحية في الرواية،فيلاحظ عليه أن الوصف جاء مقتضبًا، وهذا ينطبق على كل الشخصيات ذات المساحة السردية العريضة والقريبة من الرواي والتي تحمل دلالة روائية، وكذلك الشخصيات التي ذكرت مرة واحد ثم اختفت من عالم السرد، فلم يقدم صنع الله إبراهيم وصفًا شاملًا وتفصيليًّا لها على غرار تقديمه لشخصيات أغلب رواياته الأخرى في وفرة كمية الإخبارات السردية عنها،والأمثلة في ذلك كثيرة ومتكررة على طول الرواية، فهو أحيانًا يذكر الشخصية حسب وظيفتها في الرواية،مثلما حدث مع شخصية موظفة الجمارك، وشخصية موظف شركة الحافلات.

وهو أحيانًا أخرى يذكر اسم الشخصية متبوعة بوصف موجز جدًّا،مثل:شخصية البرديسي العالم الفلسطيني الأصل الأمريكي الجنسية،وكذلك وصفه للباحثة كريستين الموظفة في المركز الثقافي الفرنسي،" اقتربت من الخمسينية العجفاء وعلى وجهها نظرة تصميم" [1]،وهذا الوصف الموجز حدث مع شخصية مديرة المعهد الذي ينظم المؤتمر واهو قابلها أكثر من مرة وتعرف إليها جيدًا:"ولكن مديرة المعهد أخذت الميكروفون كانت ممتلئة" [2]،هكذا جاء وصفها بأنها كانت ممتلئة فحسب.

كذلك لوحظ في تقديم الشخصيات أنه حشدها حشدًا في صفحات الرواية؛حيث امتلأت الصفحة الواحدة بعدد كثبر من الشخصيات بشكل لافت للنظر،ففي الصفحة التاسعة والستين ذكر أربع شخصيات،هى: مجاميع أحداث الشغب،والسائق،وشاب،والفتاة إميلي، وبمرور

1- صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي، ص 55.

2- نفسه، ص 34.

الصفحات يرتفع عدد الشخصيات ففي الصفحة السابعة والسبعين ذكر سبع شخصيات مختلفة الانتماءات،منها التي قابلها الراوي،مثل:شخصية سامي الباحث، وشخصية البروفيسور ربيع الخطيب، والرسام، والعازف الإيراني، وشخصيات تاريخية،هى: علي بن أبي طالب، ومحمود مختار ، وأم كلثوم،والأمر نفسه يتكرر في الصفحات أرقام 92، 93، 99، 101، 102، 105 ، 108 .

ويتوازى هذا الحشد للشخصيات مع الحشد الذي تمثله نظرية ما بعد الاستعمار، وعالم ما بعد الاستعمار، على مستويات الثقافات واللغات والأعراق والتفسيرات النظرية وصراع وجهات النظر والهويات كذلك، فعالم ما بعد الاستعمار تعبير عن عالم منفتح يبشر ببزوغ عالم جديد يقوم على التفاعل الثقافي والتلاقي والحوار الحضاري على عكس عالم الاستعمار ذي البعد الواحد والنظرة الأحادية المتجمدة التي لا تري إلا نفسها فحسب،تلك النظرة العنصرية التي كانت سببًا في كل معاناة مر بها العقل الغربي.

أما عن الوصف الزهيد الخاص بشخصيات الرواية،فلعله مرتبط بما يمكن أن يسمى بسيطرة عالم الأفكار على الرواية وكل عناصر البنية السردية المكونة لها ومن بينها الشخصيات،فكلها مدعوة لتقديم وجهة نظرها في موضوع رئيس تدور حوله أحداث الرواية، وتتحرك في المساحة المرسومة لها في الزمان والمكان.

كما أن العلاقات بين الشخصيات علاقات عابرة غير مستقرة؛لأن الشحصيات جميعها مدعوة لمؤتمر بعينه وعلاقتها مرتبطة بوقت استمراره،وأثر هذا سلبًا في بيان حال الشخصيات؛ لأن العلاقات الروائية بينها تعد إحدى آليات تعرف الشخصية الروائية.

ومثلت الاختلافات بين شخصيات الرواية عرقيًّا ولسانيًّا وثقافيًّا وجغرافيًّا،التشكيلة الاجتماعية لما بعد الاستعمار؛حيث التفاعل الثقافي والتقاء الحضارات، أو بتعبير دراسات ما بعد الاستعمار الهجنة الثقافية التي تقف على النقيض من المجتمع الاستعمارى الذي يعتمد منظور النقاء والصفاء للأنا الغربية

المتمركزة حول ذاتها،كذلك مثل ما يمكن أن يسمى بالانتماء المزدوج للشخصيات المشاركة في المؤتمر ملمحًا من ملامح ما بعد الاستعمار؛لأنها من ثقافات غير غربية، هاجر كل منها إلى المركز الغربي وتشرب لغته وثقافة مجتمعه،ثم قدم كل منهم نقده لهذا المجتمع وثقافته ونظرته المتعالية إلى كل ما هو خارج الجغرافيا الغربية،وهذه الشخصيات في ذلك متشابهة مع المؤسسين لنظرية ما بعد الاستعمار.

وعزز ذلك ما ظهر في الرواية من اطلاع كاتبها على هذه النظرية ومصطلحاتها الخاصة،مثل: لذة المستعمِر،والإنكار المتبادل بين المستعمِر والمستعمَر،والهجنة الثقافية،وغيرها من المصطلحات،ويظهر ذلك أيضًا من عناوين البحوث العلمية التي سيقت على لسان الشخصيات،مثل:سياسات التذويب وطمس الهوية،ونساء التعذيب الاستعمارى،وجسد المرأة بوصفه موقعًا للتعارض بين الخطاب الاستعماري الفرنسي والخطاب الجزائري المقاوم،ومواقع الذاكرة الاستعمارية،واللغة ونتائج الاستعمار،ويؤكد ذلك عناوين الكتب،مثل:سيكولوجيا الاستعمار لمانوني،والنهب الاستعماري لجون مارلو،والتاريخ الأسود للاستعمار لمارك فيزو، والفرانكفونية لروجيه باستير،كما تؤكد الأمر ذاته طبيعة الآلية النقدية التي عملت عليها الرواية من محاولة تطبيق القراءة الطباقية في رؤيتها لكلا الطرفين؛المستعمِر والمستعمَر.

كذلك الإشارة الذكية من الكاتب في تمهيد الرواية،إلى نشأته في ظل الحقبة الاستعمارية، وإلى كيفية معاناته إياها،وكيفية حلمه وطموحه إلى شمول التغيير لكل البناء الاجتماعي المصري في ذلك الوقت،وكيفية تحقيق هذا الحلم من خلال التغيير الذى حدث بعد رحيل الاستعمار الإنجليزي ومن قبله النظام الملكي،وذلك في شكل حوار مع والده ثم منولوج خاص به.

2- الحوار :

من يتأمل الرواية محل التحليل يلحظ أن مساحة الحوارات فيها؛فلم تتحمل وظيفتها الرئيسة في بيان ملامح الشخصيات أو العمل على تطوير الحدث ودفعه

للأمام،بل تمثلت وظيفتها الرئيسة فى تمثيل جو النقاشات الدائر بين الشخصيات المختلفة الأعراق واللغات والثقافات حول قضايا الاستعمار وما بعده، في جو جدالي احتدمت فيه وجهات النظر ما بين مؤيد ومعارض بحيث عكست عالم ما بعد الاستعمار الذي يموج بالآراء ووجهات النظر المختلفة والمتناقضة أحياناً.

وعكست الرواية محل التحليل ما أسماه باختين بالتجابه الحواري الذي ظهر من خلال عرض وجهتي النظر المتضادتين؛وجهة النظر الاستعمار ووجهة نظر المقاومة،وهما يعكسان الصراع القائم على طول الرواية بين الصوت الأحادي للإمبراطورية والصوت المتنوع للمقاومة أو ما بعد الاستعمار،"وفوق هذا يكون التجابه حواريًّا؛وجهة نظر ضد وجهة نظر،نبرة ضد نبرة، تثمين ضد تثمين"[1]؛حيث ظهرت العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر بوصفها أهم شبكات العلاقات الروائية وأساسها، ومثلت بدورها النواة الدلالية المولدة للسيرورة الحكائية في الرواية.

3- الزمان:

يسير الزمن في الرواية في خط صاعد متقدم نادر التعريجات أو الانحناءات الزمنية؛ حيث جاءت الاسترجاعات قليلة،إلا ما كان من استرجاع للراوي أو عدد محدود من الشخصيات، يضيء منطقة مجهولة من حياة الشخصية،وهو من حيث الكم جاء قصيرًا جدًّا؛عبارة عن جمل أو سطر أو على الأكثر فقرة تأتي بوصفها إشارة عابرة لتضيء موضوعًا معيناً من موضوعات السرد،كما حدث مع شخصية جمالات حين تذكرها وهو يصف فتاة فرنسية في كلمة واحدة بذكر اسمها؛حيث قال:"وطفا وجه جمالات على الفور في ذاكرتي"[2].

4- الوقفات الوصفية :

جاءت الوقفات الوصفية فى الرواية محل التحليل قليلة نوعًا ما وقصيرة من حيث القياس الكمي،وثمة علاقة عكسية بين الوقفات الوصفية والإيقاع السردي؛لذلك جاء إيقاع الرواية إيقاعًا سريعًا اعتمد على حركة الشخصيات في أماكن بعينها، وتكرار كثير من الأفعال الماضية التي

1- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، دار الأمان للنشر والتوزيع،المغرب، 1987م،ص72.

2- صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي،ص 31.

تواترت في المقاطع السردية،فمثلًا ورد في سطرين ثمانية أفعال ماضية،وهذا العدد كثير بحيث تكاد الأفعال الماضية تسيطر على المقاطع السردية بوضوح،ومن أمثلة ذلك قول الكاتب:"انتهي البرنامج فخلعت ملابسي،غسلت أسناني، ابتلعت قرص الدورة الدموية، استلقيت بين الأغطية، فكرت في إيزابيل إلى أن غفوت" [1]،وقوله أيضًا:" استخرج سامي زجاجة نبيذ، ووزع علينا، ثم وقف واتجه إلى ركن امتلأ بقطع اللحم، وأمسك بماشة وحرك الفحم حتى توهجت النار " [2] .

وعزز هذا الإيقاع السريع حركة الشخصيات في أماكن بعينها ذهابًا وإيابًا في ترتيب معين عمل على ضبط الإيقاع الروائي،فالشخصيات كلها تتحرك ذهابًا من الفندق حيث تقيم، إلى قاعة المؤتمر،ومنها إلى المطاعم والمقاهي، ثم العودة مرة أخرى إلى الفندق حيث تبيت، وفي اليوم التالي تؤدى الأفعال نفسها بالترتيب نفسه،وهنا أماكن ثلاثة مركزية حددت الإطار الذي تحركت فيه الشخصيات،هى:الفندق حيث تقيم،وقاعات المؤتمر حيث النقاشات وحلقات البحث،والمطاعم والمقاهي حيث تناول الطعام والمشروبات.

5- المكان :

شمل الفضاء الروائي فى الرواية محل التحليل أماكن كثيرة،مثل:المطار، والفندق، وقاعات المؤتمر، والشوارع، ومواقف السيارات، والمطاعم، والمقاهي، وغرفة الراوي د.شكري، وهذه الأماكن للانتقال والإقامة المؤقتة،ولم يحرص الراوي فيها على تقديم وصف تفصيلي لها، وإنما جاء وصفًا يدور في إطار الموضوع الروائي ومتصلًا به.

ووصف الراوى الأماكن حتى الرئيسة منها وصفًا مجملًا وليس تفصيليًّا،وكأنه يقدمها على عجل، والأمثلة على ذلك كثيرة،منها:ذلك الوصف البسيط الذي قدمه لغرفته؛حيث قال:"كانت فسيحة وبها مكتب وركنة للطهي بجوار الباب" [3].

1- صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي، ص 32.

2- نفسه، ص 74 ، وانظر : ص 43 ، 45، 77 ، 81 ، 88.

3- نفسه، ص 24.

وحرص الراوي على إبراز الثنائية في أماكن الرواية، بين المكان الاستعمارى في المركز الغربي في فرنسا ممثلة له والمكان في فضاء ما بعد الاستعمار فضاء المستعمرات وتمثله القاهرة بفضاءاتها المتنوعة،فعلى حين اتصف المكان الاستعمارى بالاتساع والنظافة والنظام،اتصف مكان ما بعد الاستعمار بالضيق، والعشوائية والقذارة،وهذه الصفات الضدية نتيجة لسياسات النهب الاستعماري لثروات الشرق عمومًا، والراوي نفسه أشار إلى ذلك؛حيث قال:"أضفت الشوارع نظيفة...،وهناك أيضًا العناية المستمرة التي وفرها الاستقرار، فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية لم تتعرض أوروبا لعدوان عسكري مثلما حدث لنا عدة مرات، والعائد الناتج عن تدمير شوارع ومدن أخرى في أفريقيا وأسيا" [1] .

وفي وصف الراوي مقارنة بين بعض الأماكن كفرنسا والقاهرة؛حبث قال:"قلت متفذلكًا: هذا الشارع الجميل المنسق الذي يمتع النظر هو أحد ثمار التراكم المادي والحضاري الذي قام في جانب كبير منه على النهب الخارجي من المكسيك إلى الصين مرورًا بوسط أفريفيا؛لهذا لن تجدي مثله في القاهرة "[2] .

والراوى ينص في وصفه على هذه المقارنة بين الفضاءين المختلفين،أكثر من مرة أن سبب ضيق الأماكن في القاهرة وعشوائيتها وقذارتها هو اتساع الأماكن في فرنسا ونظامها ونظافتها،فالصفات السلبية في الفضاء القاهري هي سبب مباشر للسياسات الاستعمارية،فالفقر والعشوائية والقذارة آثار الاستعمار وسياسته التي نهبت خيرات الشرق ووظفتها في تنمية مجتمعاتها الغربية.

وهكذا تؤكد الرواية محل التحليل فى النهاية تضافر رؤية الغرب للشرق،وتواترها فى بنية المجتمع الغربى عامة، بداية من المؤسسات الحكومية ومرورًا بعلماء التاريخ وانتهاءً بالبشر العاديين،وهى رؤية عنصرية لا ترى فى الآخر في مستوياته كافة إلا الجاهل المتخلف الوحشي الساذج؛لذا جاءت الأقوال والممارسات والرؤى كلها لتؤكد عمق الانفصال بين رؤية كل منهما للآخر.

1- صنع الله إبراهيم،القانون الفرنسى ، ص82.

2- نفسه، ص 90.

الخاتمة : نتائج البحث :

فى نهاية البحث يمكن استخلاص النتائج الآتية:

- مثلت الرواية الغربية مع غيرها من الآداب والفنون الأخرى أحد الأسلحة المهمة التي يقنع بها الاستعمار خطاباته، للسيطرة والهيمنة على الشعوب المستعمَرة .
- الصلة معقودة بين الآداب في المستعمرات السابقة ونظرية ما بعد الاستعمار، خاصة الفن الروائى، حيث مثلت الرواية النوع الأدبى المركزى فى هذه النظرية؛ نظرًا للطبيعة الانفتاحية لهذا الفن وتمثيله لكل مفردات العالم المعاصر .
- مثلت الرواية العربية الحديثة آدب ما بعد الاستعمار؛من حيث النشأة التاريخية،وكونها كتابة مقاومة للخطاب الاستعمارى،وظهر هذا في طبيعة القضايا التي عالجتها.
- عملت رواية القانون الفرنسى كليًّا على كسر مركزية الصوت الواحد، فلا توجد حقيقة واحدة ولا صوت واحد وإنما مجموعة من الأصوات،وهذا كله بفضل القراءة الطباقية التي شملت كل الرواية وبنياتها المؤسسة.
- مبدأ الثنائية مبدأ حاكم في السرد الروائي، وشمل هذا المبدأ كل بنيات رواية القانون الفرنسى وهو مفهوم مركزي؛لأنه ينبني عليه مفهوم مركزي آخر هو الهيمنة والسيطرة،وأدى ذلك إلى سيطرة الكون المستعمِر بكل مفردات عالمه على الكون المستعمَر بكل مفردات عالمه.
- ثمة التحام شديد ووحدة موضوعية بين الجزء الخاص بالوثائق، والجزء السردي فى رواية القانون الفرنسى؛حيث تمثلت روابط هذا الالتحام فى البنية السردية للرواية ذاتها،وظهر هذا الارتباط في التكامل الذي أدياه في الدلالة الكلية للرواية.
- تنوعت الوثائق التي تضمنتها رواية القانون الفرنسى ما بين مخطوطات، و كتب، وبحوث، ولوحات ورسومات فنية، وأعلام تاريخية وسياسية، وكلها تسير في اتجاه نقض الخطاب الاستعمارى، وهذا يظهر سيطرة المنحى التوثيقى على هذه الرواية، وهى من خصائص سرد ما بعد الاستعمار.

- استخدمت رواية القانون الفرنسى مجموعة من آليات نظرية ما بعد الاستعمار،منها:علاقة الأنا بالآخر،وسياسات التذويب وطمس الهوية،وتناقض الخطاب الاستعمارى،والآثار الكارثية للاستعمار،والفن ودوروه الاستعمارى.
- حشدت هذه الرواية عددًا هائلًا من الشخصيات الروائية المختلفة الانتماءات والثقافات،وجاء هذا الحشد والتنوع متوازيًا وعالم ما بعد الاستعمار المتعدي للحدود والثقافات .
- شخصيات هذه الرواية جاء أغلبها منتميًا إلى مثقفى ما بعد الاستعمار؛حيث رحلوا من بلادهم إلى الغرب وتشبعوا بثقافته ثم قاموا بنقده فيما بعد.
- جاء تقديم الشخصيات ووصفها فى هذه الرواية زهيدين وعلى قلة من الإخبارات السردية عنها.
- عكست علاقات الشخصيات الروائية فى هذه الرواية ألوانًا من الفشل وعدم التواصل كما ظهر بين الراوى وشخصية سيلين،وهذا يدل على الانفصال بين العالمين.
- عكست الحوارات بين الشخصيات فى هذه الرواية الطابع السجالي الذي جرت فيه وجهات النظر تجاه الموضوع الروائي .
- سيطرت الأماكن المؤقتة وأماكن الانتقال على فضاءات هذه الرواية،مثل:المطارات،والشوارع، والفنادق،والمقاهي.
- لم يقدم الراوي فى هذه الرواية وصفًا تفصيليًّا لمفردات المكان،وكان تركيزه على ما يخدم الموضوع الروائي.

– حرص الراوي فى هذه الرواية على إبراز الثنائية بين المكان الغربي والمكان الشرق؛من حيث الصفات التي أصبغها على كل منهما بالتضاد،وهو تفريع لمبدإ الثنائيات الحاكمة في هذه الرواية.

- سار الزمان الروائي فى هذه الرواية في خط متصاعد،وجاءت منعرجاته قليلة؛من حيث المقاطع الاسترجاعية كمًّا وكيفاً،وجاءت الوقفات الوصفية قليلة أيضًا فى هذه الرواية.
- جاء الإيقاع الروائي لهذه الرواية سريعًا،وجاءت حركة الشخصيات في المكان ضابطة لهذا الإيقاع.
- فى هذه الرواية تقابل مصنوع وثنائية استعمارية بين إيقاع زمان المركز الغربي السريع، وإيقاع الزمان الشرقي البطيء.

قائمة المصدر والمراجع

أولًا:المصدر:

- صنع الله إبراهيم ، القانون الفرنسي، مؤسسة هنداوي للطبع والنشر، القاهرة،2008م.

ثانيًا:المراجع:

1- آنيا لومبا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار، سوريا، 2007م .

2- إدريس الخضراوي،الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار،دار رؤية للنشر،القاهرة،2013م.

3- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، 1998م.

4- .....، تأملات حول المنفى، ترجمة: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، 2004م .

5- .....، المثقف والسلطة ، ترجمة: محمد عناني، دار رؤية للنشر، القاهرة، 2006م.

6- إيمان أسامة محمد، المرأة كمركز في رسوم توضيحية مستلهمة من أعمال المستشرقين،مجلة الفنون والعمارة للدراسات البحثية،كلية الفنون الجميلة،مج2،ع3،القاهرة،2021م.

7- بندكت أندرسن، الجماعات المتخيلة؛تأملات في أصل القومية وانتشارها، ترجمة: ثائر ديب، قدمس للنشر والتوزيع، بيروت، 2009م .

8- بيل أشكروفت، الرد بالكتابة؛النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2006م .

9- ..... دراسات ما بعد الكولونيالية، ترجمة: أحمد الروبي وأيمن خلف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2012م .

10- جي إم بلاوت، نموذج المستعمر للعالم، ترجمة: هبة الشايب ، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010م .
11- حفناوي بعلي، المدخل إلى نظرية النقد الثقافي، منشورات الاختلاف،بيروت،2007م.
12- حمزة بو زيدي، المهاجر والتمثيل السردي في الرواية الجزائرية الجديدة،رسالة دكتوراه غير منشورة،كلية الآداب واللغات،جامعة محمد دباغين، الجزائر،2021م.
13- خيري دومة، عدوى الرحيل؛موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية ما بعد الاستعمار، دار أزمنة للنشر والتوزيع، الدوحة، 2010م.
14- دون ماكلويد، نظرية ما بعد الاستعمار والرواية، ترجمة: أشرف إبراهيم زيدان، بيان للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2020م .
15- رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة، خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013م .
16- زينات بيطار، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، سلسلة عالم المعرفة،المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب،ع157، الكويت، 1992م.
17- سارة ميلر، الخطاب، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2006م.
18- سالم يفوت، حفريات المعرفة؛ في نقد الاستشراق، المركز الثقافي العربي، بيروت،1989م.
19- سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب،2011م.
20- شهلا العجيلي،أدب الشعوب التي تحررت من الاستعمار،مؤتمر النقد الثقافي وما بعد الاستعمار، الدار الأهلية ،الأردن،2007م.

21- صبحي حديدي، بونابرت في يافا؛تلفيق الإمبراطورية،مجلة الدراسات الفلسطينية،بيروت،ع123، 2020م.
22- طلعت إبراهيم أبو العزم،أدب ما بعد الاستعمار ونظريته النقدية، دار عين للبحوث والدراسات، القاهرة،2015م.
23- عطيات أبو السعود، نيتشه وما بعد الحداثة،مجلة فصول،ع63،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2004م.
24- فتحية أوبشو، المؤثر الاستعماري في الرواية الجزائرية،رسالة ماجستير غير منشورة،كلية الآداب واللغات،جامعة بجاية،الجزائر،2015م.
25- ليندا لانغ، عن الحداثة،ضمن كتاب نقد مركزية المركز؛الفلسفة من أجل عالم متعدد ما بعد استعماري ونسوي،ج2، ترجمة: يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة،المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب،ع396 ، الكويت،2013م.
26- مارتن غرين، تاريخ الرواية الإنجليزية في القرن العشرين؛نكبة الإمبراطورية،ترجمة:محمد العبد الله، دار الفرقد،دمشق،سوريا،2014م.
27- مصطفى عبد العزيز موسى، قضايا المهاجرين في أوروبا، مركز الدراسات والبحوث الاستراتيجية،أبو ظبى،الإمارات العربية المتحدة،2010م.
28- مكي سعد الله، دراسات ما بعد الكولونيالية الفرنسية، مجلة تبيين للدراسات الفكرية والثقافية، ع39، مج10 ، المغرب،2022م.
29- ميخائيل باختين ، الخطاب الروائي، ترجمة:محمد برادة، دار الأمان للنشر والتوزيع، المغرب، 1987م.
30- هانز بيرتنز، النقد والنظرية ما بعد الكولونيالية، ترجمة: عمرو زكريا، مجلة فصول،ع88، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2014م.
31- هيلين جيلبرت، الدراما ما بعد الكولونيالية،ترجمة:سامح فكري، مركز اللغات والترجمة، أكاديمية الفنون، القاهرة،2000م.

32- ياسين كريم، ما بعد الاستعمار؛أربعة عقود من الزمان،نقد وتقييم، مجلة اللغة العربية،ع1، مج22، 2023م.
33- يحيى بن الوليد،إدوارد سعيد وحال العرب، سلسلة مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2011م.